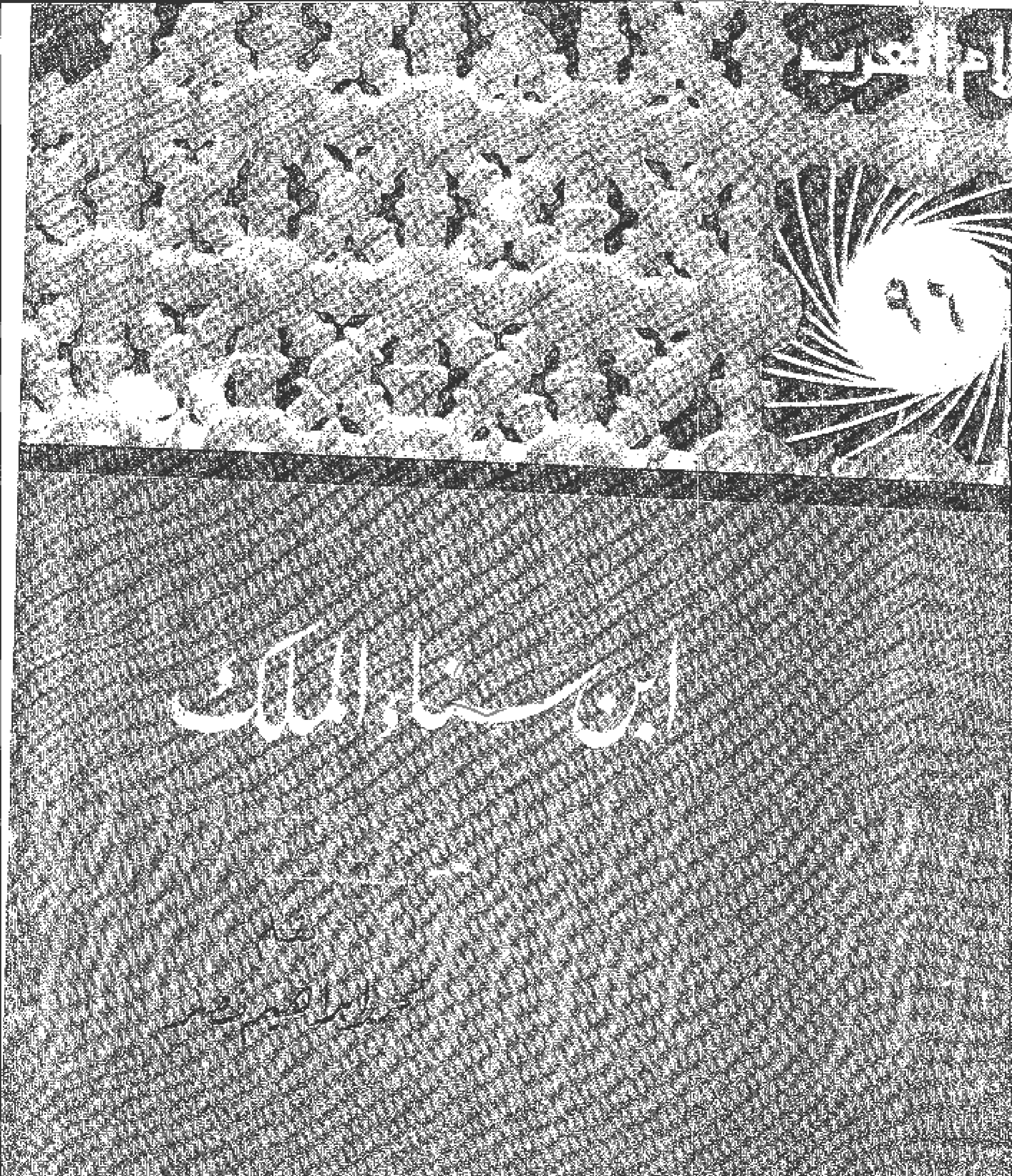
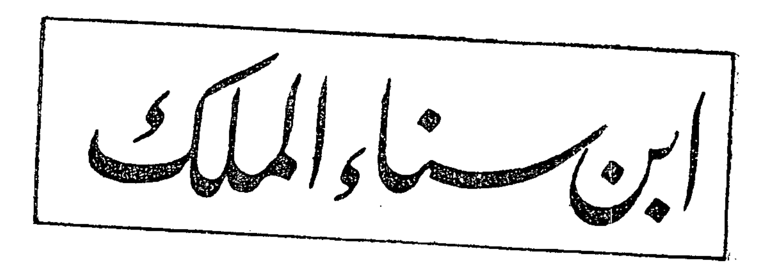


٩٦
ابن سناء الملك



أعلام العرب
٩٦



بقلم
محمد ابراهيم نصر

الهيئة العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد ظل « ابن سناء الملك » زهاء ثمانية قرون مجهولا من قراء العربية ، لا يعرفون من ديوانه غير قصيدة كانت تختار لطلاب المدارس من نماذجه الجيدة فى الفخر ، وهى : —

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

وقد بذل المؤرخون جهدا يذكر فيشكر فى ازالة الغموض عن هذه الفترة الحافلة بالأحداث السياسية ، والتغيرات الاجتماعية والفكرية .

أما حظ هذه الفترة من كتب الأدب ومن الدراسة الأدبية المعاصرة ، ومن نشر مغاليقها ودواوينها فقليل ، ولذا لا تصدر الأحكام الأدبية عليها وافية كاملة ..

ولقد كانت دراستى لابن سناء الملك ، ونشر ديوانه احدى الدعائم التى يعتمد عليها فى التعرف على أدب هذه الفترة .

وقد يكون لهذه الدراسة فى هذه الظروف وفى تلك الأحوال

أهميتها لأنها تروى لنا صورة عن ماضينا تشـــبه الى حد كبير ما نحن فيه اليوم •• فهى قصة لعصر من عصور الافاقة واليقظة •• فلقد عاث الصليبيون فى الارض فسادا وقتلا وانتهابا ، حتى قيض الله لهم البطل الأيوبى « صـــلاح الدين » فوحـــد العرب ، وجمع شملهم ثم لقى بهم أولئك الصليبيين فبدد شملهم ، وكتب بالسيف نهايتهم ، وعلم الأجيال التى أتت من بعـــده أنه لا عز للعرب اذا اختلفوا وتفرقوا ، ولا بقاء للأجنبى الدخيل اذا اتحدوا وائتلفوا •

وكان ابن سناء واحدا من الشعراء المعـــدودين الذين تغنوا ببطولة « صلاح الدين » ، وبعث الحماسة فى نفوس المسلمين ، وأثار الحمية والشجاعة فى قلوب المحاربين ، لذا كان الى البيت الأيوبى أثيرا ، والى نفوس وزرائهم وأمرائهم قريبا ، فلا غرابة أن يكون علما من أعلام عروبتنا ، ورائدا من رواد نهضتنـــا تجـــذبنا آثاره ، ويستهوينا روض أشعاره ، وقد سرنى أن المشرفين على الهيئـــة يتيحون بنشر هذه الدراسة فرصـــة لقراء الأعلام على اختلاف ثقافاتهم ــ كى يطلعوا على شاعر التقت عنده الشعراء ، والتف حول أدبه الأدباء ، وفى ذلك النشر ارهاص لصدور الديوان الذى قمت بتحقيقه ، والذى يجمع شعر الشاعر كله •

وقد يكون لهذه الدراسة أهميتها فى هـــذا التوقيت الزمنى الذى يجتمع فيه ملوك العرب ورؤساؤهم ليتدارسوا فيه موقفهم من ذلك العدو الذى يتربص بهم الدوائر ويتخذ من فرقتهم ســـبيلا لتحقيق أهدافه ومطامعه • وفق الله العرب لتوحيد الكلمة وجمع الشمل والله الموفق والهادى سواء السبيل •

محمد ابراهيم نصر

١
عصر ابن سناء الملك
(٥٥١هـ - ٦٠٨هـ)

حال مصر والشام فى أخريات العهد الفاطمى :

كان العصر الفاطمى الثانى الذى بدأ فى أواخر عهد المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) بداية ضعف هذه الخلافة ، وظهور الوزراء العظام الذين استأثروا بالسلطة وتنازعوا الحكم ، وساعدوا على ارتباك البلاد ووقوعها فى خضم من الفتن والثورات والقلاقل ٠

وكانت الوزارة كلعنة الفراعنة تصيب من يسعى اليها فلا يلبث أن يقتل أو يفر أو يموت ، ولم يترفع الخلفاء ولا الوزراء عن تدبير المؤامرات ، وارتكاب جرائم القتل ، وحسبنا أن نعلم أنه منذ وثب بدر الجمالى على كرسى الوزارة فى أواخر عهد المستنصر

حتى عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية ـ ولى الوزارة ما يقرب من أحد عشر وزيرا قتل منهم سبعة وزراء ، ومات اثنان وفر الباقون ٠

ولقد كان فى مصر أربع قوى تتنافس على الحكم والسلطة :
أولها : قوة المغاربة الذين كانوا عصب الدولة الفاطمية فى بادىء الأمر ، **ثانيها :** قوة السودانيين : الذين وفدوا الى مصر كجنود مرتزقة حين استعان بهم الحاكم بأمر الله على المصريين السنيين فهجموا على المدن ، ونهبوا الأسواق وظلوا خطرا على الدولة حتى بدد صلاح الدين الأيوبى شملهم وكتب بالسيف نهايتهم فى وقعة **العبيد** ٠

ثالثها : قوة الأتراك وقد كانوا خطرا على الدولة تمكن أمرهم ، واستبدوا بالسلطان وخلعوا الخلفاء ودبروا المؤامرات لقتلهم ٠٠ اشتبكوا فى قتال مرير مع المغاربة حينا ، ومع السودانيين حينا آخر ٠

رابعها : قوة الأرمن : وقد قدم بهم والى عكا « بدر الجمالى » عندما استغاث به الخليفة « المستنصر » ليخلص البلاد من الفتن والقلاقل ، فاشتبكوا تارة مع السودانيين ، وأخرى مع الأتراك ، وخلا لهم الجو حينا ، فاستبدوا وظلموا ، واستطاع « بهرام الأرمنى » والى الغربية فى عهد الحافظ بالله أن يحاصر القاهرة فى سنة ٥٢٩ هـ ٠ وأرغم الخليفة على أن يلى الوزارة على الرغم من عدم دخوله الاسلام ٠ وظلت مصر نهبا لهذه القوى ، وتلك المنازعات بين هذه القوى الأجنبية الدخيلة حتى قضى على الخلافة الفاطمية نهائيا على يد البطل « صلاح الدين الأيوبى » فى سنة ٥٦٧ هـ ٠

الصراع بين المذهب الشيعى وبين المذهب السنى :

ولقـــد كان من بين الظواهر الهامة التى فرقت العـــرب ومزقت شملهم ذلك الصراع الحاد بين المذهب الشيعى الذى دان به الفاطميون ، وتعصبوا له ، وبين المذهب السنى الذى التزمت به الخلافة العباســية والتفت حوله ، وأدى هــذا الصراع الى الحرب بالدعاية حينا والى التقاء الجيوش حينا آخر ، وتم للفاطميين (١) بسط نفوذهم وسلطانهم على معظم البلاد الساحلية وبيت المقدس ، ثم حلب ، غير أنهم لم ينعموا بحكم البلاد الشامية طويلا بل لم تنعم هذه البلاد نفسها بالاستقرار والأمن والسلام فظلت مسرحا لهــذا الصراع الحاد بين المحاولات الفاطمية من جهة والحركات الاستقلالية التى تنبعث أحيانا داخل البلاد ، أو القوات العباسية أو القوات السلجوقية ـ من جهة أخرى ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين فأحيانا يتقدم السلاجقة حتى يهددوا مصر نفسها بالغزو كما حدث فى سنة ٤٦٥ هـ حيث تمكن السلاجقة من فتح الرملة وبيت المقدس ثم فتح دمشق سنة ٤٦٧ هـ وتقدمت جيوش السلاجقة صـــوب مصر سنة ٤٦٩ هـ ثم يكر الفاطميون من جـــديد فى وزارة بدر الجمالى سنة ٤٨٢ هـ فيســتعيدون ســـلطانهم على معظم المـــدن الساحلية ..

الحروب الصليبية :

وقد هيأ هذا الخلاف بين القوى الاســلامية ، وهذا الصراع العنيف الدامى ـ الفرصة أمام جحافل الغزو الصليبى فدنســـوا بأقدامهم أرض الشرق ، وكونوا لهم امارات صليبية فى قلبـــه

---

(١) ابن خلدون : ٤ : ٩٠ ، اخوان الصفا من ١٥ ـ ١٨ .

بعد أن قتلوا آلاف المسلمين ومثلوا بهم شر تمثيل ، فبقروا بطون الحوامل ، وقتلوا الأطفال والشيوخ ، ودخلوا المساجد بخيلهم ورجلهم ولم تستطع قوى الفاطميين الثبات أمامهم على الرغم من القوة العظيمة التى جابههم بها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩٢هـ لأن الخلافة العباسية أبت أن تمد يدها للخلافة الفاطمية فى اتخاذ موقف موحد أمامهم ·

سقوط الدولة الفاطمية :

ولم تعد الخلافة الفاطمية فى حال تساعدها على استعادة نفوذها فى بلاد الشام فاضمحل سلطانها منذ أواخر القرن الخامس الهجرى بحيث لم يعد فى مقدورها أن تحافظ على سيادتها فيما وراء الحدود المصرية(١) ·

هذه عجالة سريعة لما كانت عليه الأحوال السياسية فى مصر والشام فى أخريات العهد الفاطمى ·



الحياة الاجتماعية :

ولقد حرص الفاطميون أشد الحرص وأقواه على دعم سلطانهم، ونشر مذهبهم ، وستر عيوبهم ، وانعكست صورة هذا الحرص على حياتهم الاجتماعية ، وتقاليدهم المرعية ، وتجلى ذلك واضحا فى :

الأعياد والمواسم وحفلات اللهو : فلقد كثرت الأعياد والمواسم والحفلات الدينية فى هذا العصر كثرة ملحوظة ، واهتم الفاطميون

---

(١) النفوذ الفاطمى : ٦٨ ، ٦٩ .

بالحفاوة بها فى كثير من الأبهة والعظمة ، ففى ليلة عيـــد الفطر تفرش البسط الثمينة الضخمة بالايوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة ، وتمد عليه الموائد ، وتنثر عليها صنوف الفطائر والحلوى ، وتلبس المساجد حلة من الضوء والزينة ، وعندما ينتهى الخليفة من صلاة الفجر يعود الى مجلســه ، وتفتح أبواب القصر والايوان على مصاريعها ، ويسعى الناس من جميع الطبقـــات لينعموا بمشاهدة الخليفة ، ويتناولوا الطعام بمشهد منه ، ومن وزرائه (١) ، وعنـد بزوغ الشمس يتجه ركب الخليفة فى موكب حاشد الى الصلاة ، وبين يديه العسكر من الأتراك والديلم ، والعزيزية ، والاخشيدية والكافورية ، كل فى زيه .. وأهل العراق يخرجون بالديبـــاج والسيوف . والمناطق الذهبية . وبين يدى الخليفة يخرج بالمظلة المثقلة وعليها رجال مدججون بالســـلاح ويخرج الخليفة بالمظلة المثقلة بالجوهر ، وبيده قضيب جده عليه السلام فيصلى على نحو ما كان يفعل الرسول ثم ينصرف ، واذا عاد من الصلاة وجد سماطا آخر فيجلس عليه وأمامه مائدة من الفضة يقال لها « المدورة » وتوضع عليها أوانى الذهب والفضة الزاخرة بألوان الطعام وقد نثرت عليها الأزهار والرياحين ، وكان يجلس اليه رجال الدولة والعظماء .

أما فى عيد الأضحى ففضلا عن ذلك كله يخرج الخليفـــة الى المذبح فى أيام العيد الثلاثة ، ويشترك فى اجراءات النحر ، واذا انقضى اليوم الثالث من أيام العيد يمنح الخليفة وزيره ثوبه الأحمر الذى كان يرتديه يوم العيد(٢) .

ومن أشهر الأعياد والمواسم ليالى الوقود الأربع ، وهى أول رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه ، ففى هذه المواسم تضاء جميع

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ : ٩٧ .

(٢) صبح الاعشى : القلقشندى جـ ٣ : ٥١١ ، ٥١٢ .

المساجد ، وتبدو القاهرة فى حلل بديعـــة من الأضواء والزينات ، واستمع الى قول ابن سوار الشاعر يصف أحد الجوامع مع ليـــلة النصف : ـ

ما أحسن الجـــامع فى ليـــلة النصـ
ـف وقـــد لاح عليـــه السرور
وأشـــبهت زهر قنـــاديله
كاســـات راح للندامى تدور
وقـــارن النســـر الثريا به
وقابل البـــدر هنـــاك البـــدور (١)

وكان الناس يخرجون الى الجامع الأزهر الذى تضاء حافاته بالمشاعل ، ويعقد فى صـــحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة (٢) .

وكان الشعب المصرى يستقبل هذه المواسم بمظـاهر الفرح والسرور الا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن عام تعطل فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون الى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد فى رثاء الحسين ، وفى نفس اليوم يقام سماط الحزن فى بهو بسيط ، وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجبن ويحضره الخليفة ملثما ومرتديا ثياب الحزن القاتمة (٣) .

وقد عنى الفاطميون كذلك ببعض العادات التى تسربت اليهم ممن سبقهم كالاحتفال بوفاء النيل الذى اتبع منذ قدماء المصريين فقد كان يحتفل به بحضور الخليفة الذى يركب جواده المطهم وفى

---

(١) فوات الوفيات : جـ ٢ : ٤٣٦ .
(٢) الخطط : المقريزى : جـ ١ : ٤٦٦ ، ٤٦٧ .
(٣) المقريزى : خطط : جـ ١ : ٣٤١ .

ركابه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطهمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بالديباج المطرز باسم الخليفة ، ويليهم صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من الجند (١) ، وعندما يصل ركب الخليفة مقياس النيل بالروضة ومعه رجال حاشيته والوزراء يصلى ركعتين ثم يضع الخليفة بيده الزعفران والمسك فى اناء خاص ويسلمه لصاحب بيت المال الذى يقدمه للموظف المختص بالاشراف على المقياس فيعطر المقياس به بينما يقرأ المقرئون آيات الذكر الحكيم .

وكان الخليفة فى كل مناسبة من هذه المناسبات يمنح الشعراء والأدباء والوزراء خلعه وحلله الحريرية الخالصة المزركشة بالذهب (٢) مشفوعة ببطاقة رقيقة ذكر المقريزى صورة منها (٣) .

هذه بعض المواسم والأعياد التى اهتم بها الفاطميون ، والتى ظل معظمها ينساب عبر الزمن حتى وصل الينا فمازالت القرى المصرية تقرأ الأدعية فى ليلة النصف من شعبان ، وتقيم الموالد للصالحين كمولد الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى ، وقد وقف الأيوبيون من بعض هذه العادات موقف العداء الشديد ، وتركوا بعضها يسير مع الزمن ، واستحدثوا بعضا آخر جديدا منها فحاربوا منها ما كان يتعارض مع المذهب السنى ، ويدعو الى سيادة المذهب الشيعى والتعصب له كالاحتفال بمولد الحسين ، ولبس السواد يوم وفاته ، والاحتفال بمولد السيدة زينب ، والحداد

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم : ٦٦٩ .

(٢) الخطط : للمقريزى : ١/٤١٠ .

(٣) صبح الاعشى : ج ٣ : ٥٠٥ ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية للدكتور محمد جمال الدين سرور : ٢١٤ .

العام والبكاء ولبس السواد يوم عاشوراء .. لقد نظر الأيوبيون الى هذه العادات ، وأمثالها نظرة عداء شديد فأبطلوا منها بالتدريج ما قدروا عليه ، بل انهم كانوا فى يوم عاشوراء يتزينون ، ويكتحلون ، ويخضبون أيديهم بالحناء ، ويوسعون على أولادهم ، فتذبح الذبائح ، وتوقد المطابخ ويلبس الأولاد الجديد من الثياب ، وينعى شعراء الشيعة هذا العمل الذميم ، ويبكون الحسين ، ويسبون من يشمت فيه وفى ذلك يقول الشاعر المصرى أبو الحسين الجزار :-

ويعود عاشوراء يذكرنى
رزء الحسين فليت لم يعد
ياليت عينا فيه قد كحلت
لشماتة لم تخل من رمد
ويدا به لمسرة خضبت
مقطوعة من زندها بيدى
أما وقد قتل الحسين به
فأبو الحسين أحق بالكمد (١)

وهذا الشاعر نفسه هو الذى داعب الشريف شهاب الدين ناظر الأهراء فكتب اليه ليلة عاشوراء : -

قل لشهاب الدين ذى الفضل والندى
والسيد ابن السيد بن السيد
أقسم بالفرد العلى الصمد
ان لم يبادر لنجاز موعدى
لأحضرت للهناء فى غد
مكحل العينين مخضوب اليد

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر : جـ ١ : ١٤٨ ، دراسات فى الشعر فى عصر الايوبيين : ٣٤ .

فقد أعطانا الشاعر بهذه المداعبة صـــورة لما كان يجرى بين المتعصبين من أصحاب المذهبين ، أصحاب المذهب الســـنى الذين كانوا يخرجون ليلة عاشوراء للهناء ، وأصحاب المذهب الشـــيعى الذين كانوا يخرجون للعزاء .

أما ابن سناء فقد وقف من هذا العيد موقف المحايد فلا يفعل فعل الشيعة ، ولا يشارك الأيوبيين فى فرحهم وسرورهم : —

ونظمتهـــــا فى يـــوم عا	**شـــوراء من همى وحـزنى**
يـــوم يناســـب غبن من	**قتلوه ظلمــا مثــل غبنى**
يـــوم يســـاء به وفيـــ	**ـه كل شـــيعى وســـنى**
ان لم أعـــز المســـلمـ	**ـين بـه فــانى لا أهنــى**
أو كنت ممـن لا ينـــــو	**ح بـه فــانى لا أغنـــى (١)**

ومازالت مصر الى اليوم وخاصة فى قراها تحتفل بيـــوم عاشوراء ، فيصنعون الحـــلوى ، ويذبحون الطيـــور ، وما طبق « عاشـــوراء » الا أثر من آثار هـــذا النزاع المذهبى بين الأيوبيين والفاطميين .

عيد الربيع : ومما استحدثه الأيوبيون الاحتفال بعيد الربيع فكانوا يخرجون فيه بالمهرجانات ، ويقيمون الزينات ، ويستعدون له قبل حلوله وهذا التقليد الشعبى استحدث ردا على ما كان يفعله الصليبيون فى عيد الفصح بالقدس ، فقد كانوا يحملون الســلاح ، ويسيرون المواكب فى عرض عسكرى عام لارهاب السكان ، فأنشأ «صلاح الدين» هذا العيد مناوئا له يمثل عرضا عسكريا تشترك فيه مدن فلسطين ، ويخرج المسلمون ، وأرباب القوة والفتوة ، ويصعد بعضهم على أكتاف بعض ، وينشدون ، ويهزجون واتسم هـــذا

---

(١) ديوان ابن سناء الملك : تحقيق المؤلف قافية النون .

العيد بالطابع الدينى ، كما يتسم « عيد الفصح » بهذا الطابع ، وانتقل الى المدن الغربية كلها ، وغدا من أجمل أعيادها .

اللهو : أما اللهو فى العصر الفاطمى : فقد انتشر فى عواصم المدن الكبرى ، واشتهرت فيها أحياء خاصة باللهو والمجون والخلاعة ففى القاهرة كنت تجد بركة الفيل ، وفى دمشق « خان العتيقة » بظاهر البلد يقول عنه ابن جبير فى رحلته : « انه جمع أسباب الملاذ ، ويجرى فيه الفسق والفجور بما لا يحد ولا يوصف » (١) .

وكثر الاهتمام بالغناء والموسيقى فأقبل وجوه القوم فى مجالسهم الخاصة ، ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات ، وكان معظم المغنيات من الجوارى ، وكان الفاطميون يحذون حذو خلفاء بغداد ويجارونهم فى أنسهم وطربهم ، فيحكى أن الأمير « تميم بن المعز لدين الله » اشترى جارية من بغداد تجيد الغناء فغنت له ولجلسائه حتى طرب ، فقال لها : « تمنى ما شئت ؟ فتمنت أن تغنى ما غنته فى هذا المجلس ببغداد (أى تعود اليها) فلم يجد الأمير بدا من الوفاء لها بما طلبت ، وأرسلها الى بغداد .

وكان المستنصر يحب الغناء ويطرب له حتى انه سمع مغنية بجوار القصر تغنى يوم استيلاء « البساسيرى » على بغداد واقامة الخطبة باسم « المستنصر » فطرب لغنائها ، وأجزل لها العطاء (٢) .

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد فى قصور الخلفاء والوزراء حيث يجتمع العلماء والأدباء للسمر والأنس ، وسماع النوادر والفكاهات أو لعب الشطرنج والنرد اللذين نقلا اليهم من الفرس (٣) .

---

(١) رحلة ابن جبير .
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٥ : ١٢ .
(٣) الحضارة الاسلامية : جـ ٢ : ٢١٤ ، ٢١٥ .

وكان للشعراء مجالسهم الخاصة ، ولهوهم البرىء أحيانا والخليع أحيانا أخرى ، وأصبح المجون فى الشعر والاستهتار أمرا شائعا ، ومألوفا بين الشعراء ٠

ولم يكن ابن سناء فريدا فى ذلك ولكنها روح العصر أملت ذلك على الشعراء حتى المتصوفين منهم ، قالوا فى المجون مجاراة لروح العصر حتى لا يكسد شعرهم ، وقد ذكر ابن الوردى نفسه فقال معتذرا عما كتبه فى المجون والاستهتار واضطراره الى افتتاح قصائده بالغزل فى المذكر لتروج أشعاره وتنتشر فيقول :

أستغفر الله من شعر تقدم لى   فى المردقصدى به ترويج أشعارى

ويقول فى موضع آخر :

ما المرد أكبر همى   ولا نهاية علمى
ولست من قوم لوط   حاشا تقاى وعلمى
وانما خرج دهرى   كذا فنفقت شعرى (١)

ويرجع السبب فى شيوع هذا اللون من الغزل الماجن الى كثرة سبى الحروب الصليبية من غلمان الفرنج الصباح الوجوه وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الترك من أصقاع آسيا ٠

وأصبح من المعانى المطروقة فى الغزل وصف العارض وقد خط فيه الشعر فبدا سواده الى جانب بياض الوجه ، ومن ذلك قول أحد الشعراء : (٢)

لقد أثرت صدغاه فى لون خده   ولاح كفىء من وراء زجاج
ترى عسكراً للروم فى الزنج قد بدت   طلائعه تسعى ليوم هياج

(١) ديوان ابن الوردى : طبعة مجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤ ٠
(٢) الجامع المختصر : ج ٩ : ١٤٢ ٠

أم الصبح بالليل البهيم موشحا حكى آبنوسا فى صفيحة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده فسيجه من شعره بسياج

وقد استغلت بعض الفرق الدينية الفقر وسوء توزيع الثروة فلعبت بعقول العامة والسذج كفرقة الحشيشية ـ وهى من فرق الاسماعيلية ـ وكانوا يسقون مريديهم الحشيش ، ويذهبون بهم الى البساتين ، ويقودون لهم النساء ، ثم يقولون لهم : هذه صورة مصغرة من جنة الآخرة ، فاذا ما طلبوا العودة الى هذا المكان قالوا لهم : لا يمكن الا بتنفيذ الأوامر ، وغالبا ما تكون أوامرهم كلها فسادا وافسادا ، وقتلا ونهبا ، وتحت هذا الوعد يوجهونهم الى ما يشاءون (١) .

٣

الحياة العقلية والفكرية

المذهب الشيعى وأثره :

لقد تسرب المذهب الشيعى الى المغرب على يد الامام « ادريس ابن عبد الله بن الحسن » الذى فر من أيدى العباسيين فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩ هـ ، وأسس الأدارسة فى «موريتانيا» دولة شيعية سنة ١٧٢ هـ التف حولها البربر ، ولما ذهب «أبو عبد الله الشيعى» الى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة لنشر هذا المذهب ، كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر ، واعتنقه كثير من الأغالبة الذين قامت دولتهم فى تونس سنة ١٨٤ هـ وظلت

---

(١) الشرق الاسلامى قبل الغزو المغولى : حافظ حمدى : ٢١ .

قائمة حتى استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ ، ومد نفوذ الفاطميين الى أكثر أجزاء المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق فى جميع الجهات الواقعة غرب مدينة القيروان (١) ٠

ولما استتب الأمر للفاطميين فى المغرب طمعوا فى فتح مصر لكثرة خيراتها من جهة ولتوسطها من جهة أخرى ، ولم يجد الفاطميون عنتا فى فتح البلاد ، وسرعان ما وصل المعز واتخذ القاهرة مقرا لخلافته سنة ٣٦٢ هـ ٠ وقد أعطى « جوهر الصقلى » المصريين عهدا التزم فيه باطلاق حريتهم فى المعتقدات الدينية ، وأمنهم على ديارهم وأموالهم ٠٠ ولكن الفاطميين تنكروا لهذا العهد ، وتركز اهتمامهم فى تحويل المصريين الى المذهب الشيعى ، فأسندت المناصب العليا الى الشيعيين واتخذت المساجد الكبيرة مراكز للدعاية الفاطمية كمسجد عمرو بن العاص ، ومسجد أحمد بن طولون ، والجامع الأزهر ، واهتموا بتعيين أحد كبار المتفقهين فى مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم ، وكان يعرف بداعى الدعاة ، كما كان عالما بجميع مذاهب أهل البيت ٠

وأمعن الفاطميون فى اظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالآذان بحى على خير العمل ، والاحتفال باليوم العاشر من المحرم ، وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء ، وعيد الغدير المعروف بغدير « خم » (وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة) ، وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عودته من حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة نزل بغدير « خم » فى طريقه الى المدينة ، وأخذ بيد على بن أبى طالب وقال : « ألستم

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم : ٥٠ ، ٥١ ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية : محمد جمال الدين سرور : ١٠ ٠

تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا بلى ! فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » (١) .

ويعلق الشيعة على هذا الحديث أهمية كبرى اذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلى بن أبى طالب (٢) .

وقد استاء المصريون السنيون كثيرا لنشر المذهب الشيعى ، وأرغموا على المشاركة فى اظهار شعائر الشيعة .

وفى عهد العزيز كان لزاما على الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا طبقا لأحكام المذهب الشيعى واذا ما ثبت على أحدهم التقصير فى مراعاتها عزل عن وظيفته ، وقد أدى ذلك الى اعتناق الكثيرين لهذا المذهب (٣) .

وبالغ « الحاكم بأمر الله » فى التعصب للمذهب الفاطمى فأمر فى سنة ٣٩٥ هـ بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفى الأسواق والشوارع والدروب .

ثم اتجهت السياسة الفاطمية نحو اللين زمن الخليفتين : الظاهر والمستنصر ، فتمتع السنيون بمطلق الحرية فى أداء شعائرهم ، ولما تقلد « بدر الجمالى » الوزارة فى عهد المستنصر كان شيعيا مغاليا ، فأظهر روح العداء والكراهية ازاء أهل السنة سنة ٤٧٨ هـ وأمر باضافة حى على خير العمل الى الآذان ، وأعاد لعن الصحابة على الجدران وأصدر أوامره بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط طبقا للمذهب الشيعى .

---

(١) الخطط : للمقريزى : جـ ١ ص ٣٨٩ ، ظهر الاسلام : أحمد أمين : جـ ١ ص ١٤٩ .

(٢) اتعاظ الحنفا : للمقريزى حاشية رقم ١ ص ١٩٥ ، ومصر فى عصر الفاطميين : ٤٨ .

(٣) الخطط : للمقريزى جـ ٢ : ٢٨٦ .

ولقد ظل كثير من المصريين على مذهب أهل السنة والجماعة وساعدهم على ذلك أن الفاطميين تركوا لهم الحرية فى تدريس مذهبهم بل تركوا الفسطاط حاضرة لهم ، فدرسوا تعاليم الامام « مالك » و « الشافعى » و « ابن حنبل » أما مذهب أبى حنيفة فلم يوافق الفاطميون على تدريسه لأنه مذهب العباسيين .

ولقد كان للتشريعات التى استحدثها الفاطميون فى مصر ، وخاصة ما يتعلق منها بالوراثة أكبر الأثر فى احتفاظ أهل السنة بمذهبهم اذ رءوا فى تلك التشريعات منافاة صريحة لنصوص القرآن ، فقانون الميراث عندهم يجيز للبنت أن ترث كل ما تركه أبواها اذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوى العصبة ، وهذا يخالف المذهب السنى الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة(١) .

وقد غالى دعاة الشيعة فى نشر مذهبهم ، واختلط بالدعاة الفاطميين بعض الدعاة من الفرس ونادوا بألوهية الحاكم ، وأدى ذلك الى الصدام والتحدى لا فى مصر وحدها بل فى كثير من البلاد الاسلامية (٢) .

وقد روى صاحب النجوم الزاهرة : أن الفاطميين كانوا باطنيين زنادقة ، دعوا الى مذهب التناسخ ، واعتقاد حلول الجزء الالهى فى أشباحهم وقد قال الحاكم لداعيه : « كم فى جريدتك ؟ قال : ستة عشر ألفا يعتقدون أنك الاله » قال أبو المحاسن : وهذا أعظم كفرا من النصارى لأن النصارى يزعمون أن الجزء الالهى حل بناسوت عيسى فقط أما هؤلاء فيعتقدون بحلوله فى جسد الخليفة ، وهذا اعتقاد باطل(٣) .

---

(١) مصر فى عهد الدولة الفاطمية : ٥٣ .
(٢) الادب فى عصر صلاح الدين : محمد زغلول سلام : ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ .

وعلى الرغم من جهود الدعاة الفاطميين فى نشر مذهبهم فانه لم يجد صدى فى نفوس المصريين ، وكان يتأرجح بين الفناء والبقاء حتى كتب الله نهايته على يد « صلاح الدين الأيوبى » الذى حاربه بسلاح العلم فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى ، وأخرى للمذهب المالكى ، وعزل قضاة الشيعة ، واختفى المذهب الشيعى تدريجيا حتى لم يستطع مؤيدوه أن يعلنوا عن آرائهم ، بل ان كثيرا منهم تعرض للأذى والاهانة .

وعلى الرغم من انقراض هذا المذهب بزوال الخلافة الفاطمية الا أنه ترك أثرا واضحا فى الشعراء والأدباء فقد كان الشعراء يمدحون الخلفاء العباسيين أو سلاطين الأيوبيين بالصفات نفسها التى أغدقتها العقائد الفاطمية على الأئمة ، وقد تأثر ابن سناء الملك بالعقيدة الفاطمية تأثرا واضحا فهو حين يمدح صلاح الدين يقول :

أعدت الى مصر سياسة يوسف — وجددت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماته — فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
بقيت الى أن تملك الأرض كلها — ودمت الى أن يرجع الكفر مسلما

فالمشابهة بين صلاح الدين وبين يوسف عليه السلام فى الاسم حقيقة ، ولكن الشاعر قد جعله ابن يعقوب ، وجعله ابن مريم الذى أحيا الدين بعد مماته ، وهذا لا يقبل الا على أساس واحد وهو الجرى على حسب العقيدة الفاطمية التى تؤول الآيات القرآنية التى وردت فى المسيح بأن احياء الموتى معناه نشر الدين، واحياء النفوس بالعبادة .. ثم يقول ابن سناء فى مدح السلطان على ابن صلاح الدين :

مولى الأنام على هكذا نقلت — لنا الرواة حديثا غير مختلق

فقد نقل الشاعر الحديث النبوى : « من كنت مولاه فعلى مولاه » الذى قيل فى على بن أبى طالب الى السلطان على متبعا سنة

الشعراء الفاطميين .. وكما تأثر ابن سناء بهذا المذهب تأثر غيره ، وشاركوه هذا الاتجاه كابن النبيه ، وابن الساعاتى ، وابن مطروح . الا أن هؤلاء الشعراء لم يقصدوا الى ذلك قصدا ، ولم يكن يعنيهم أن يلموا بتلك الخصائص . وانما انسابت اليهم خصائصها وطابعها عبر الزمن كميراث متخلف عن الفاطميين الراحلين .

التصوف :

وكان من بين الأساليب التى حارب بها صلاح الدين هذا المذهب تشجيع حركة التصوف لما بين المذهب الشيعى والتصوف من تقارب فى الآراء ، ولقد كانت هذه حركة بارعة فسرعان ما اتجه كثير من الناس الى التصوف والزهد حتى لم ينج منه الأمراء والملوك (١) .

ومما يذكر عن الصوفية أن بعضهم كان يذوب وجدا حين يستمع الى نشيد صوفى ، أو معنى من معانى الصوفية الرقيقة فقد استمع يوما صوفى يدعى « أحمد بن ابراهيم الدارى » مغنيا يغنى قول الشاعر :

أعاذلتى أقصرى	**كفى بمشيبى عذل**
شباب كأن لم يكن	**وشيب كأن لم يزل**
وحق ليالى الوصال	**وآخرها والأول**
وصفرة لون المحب	**عند استماع الغزل**
لئن عاد عيشى بكم	**حلا العيش لى واتصل**

فتحرك الصوفية وطربوا ، وطرب الشيخ المذكور، وتواجد، ثم سقط مغشيا عليه فحركوه فاذا هو ميت(٢) .

---

(١) الكامل : لابن الاثير ج ٩ : ٢٢٨ .

(٢) الكامل ج ٩ : ٢٦٦ .

واشتهرت الدولة الأيوبية بتشجيع حركة التصوف ، فبنوا أماكن للعبادة يقضي فيها المتصوفة كل أوقاتهم ، وتنفق الدولة عليهم أثناء اقامتهم بهــذه الأماكن التى كانت تسمى بالخوانق ، وكان من عمل الخانقاه ايواء الغرباء من المسلمين والسماح لهم ، ولأسرهم بالاقامة فيها ٠ وكان المتصوفة يغادرون الخانقاه للصلاة فى المسجد يوم الجمعة فى مشهد رائع يغرى الناس جميعا بالنظر اليهم ، والتبرك بهم فى طريقهم الى المسجد ٠

وقد أثر عن « نور الدين محمــود » أن أصــحابه قالوا له يوما : ان لك فى بلادك ادارات كثيرة للفقراء والفقهاء والصوفية، فلو استعنت الآن بها لــكان أمثل ، فغضب نور الدين وقال : « والله انى لا أرجو النصر الا بأولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صــلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطىء ، وأصرفها الى من لا يقاتل عنى الا اذا رآنى بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟! » ٠

وبهذا المبدأ عمل صلاح الدين أسوة بأستاذه «نور الدين» ومن المؤكد أن « صلاح الدين » هو أول من أحدث الخوانق بمصر ، فبنى خانقاه « سعيد السعداء » (١) ٠ وقــــد أصبح التصوف فى هذا العصر تيارا من تيارات الفكر الاســلامى ، ورافدا كبيرا من روافد الأدب كذلك ٠

وقد جمــع التصــوف كثيرا من الأفكار الدينية عنــد الأمم القديمة ، ووفق بينها وبين الاسلام ، كما استعان ببعض الاتجاهات الفلسفية والأخلاقية (٢) ومن أبرز الظواهر الفكرية فى العصر

---

(١) الادب المصرى فى العصر الايوبى : ٤٨ ، ٤٩ ٠

(٢) وفيات الاعيان : جـ ٥ : ٢١٣ ٠

الأيوبى معاداتهم لكل الآراء الفلسفية حتى ولو اعتمدت عليها العقيدة الدينية ، فقد اشتد صراعهم للمعتزلة والأشعرية ولكل ما يمت الى الفلسفة والمنطق بصلة ، وقد انعكس تيار التصوف على الشعراء والأدباء وتأثر به ابن سناء الملك وغيره من الشعراء فظهر فى صورة تبرم بالدنيا ، وسخط من تصرف الأحداث ، واستسلام للقضاء والقدر ، ومن ذلك قصيدته التى مطلعها : —

عز اله العالم وذل ابن آدم

وفيها ينعى على الناس سخطهم على القضاء والقدر ، وتفسيرهم كل شىء بالعقل والعقل قاصر على الحكم ، وأن التسليم بالقضاء والقدر والرضى بهما هو طريق السلام والنجاة ، ويسخر من مدعى العلم الذين يقولون بقدم الزمان مع أن فعلهم يحمل دليل البطلان : وهى اشارات سريعة لبعض معتقدات الفرق الصوفية : استمع اليه يقول بعد البيت الأول : —

يخاصمون ربهم والرب لا يخاصم
وحاكموه للنهى وعنده نحاكم
وقائل لم كان ذا وقائل لم لا ولم
ومدع بأنه فى العلم لا يقاوم
رأى الزمان حادثا فقال قد تقادم
وما درى بأنه بفعله قد صادم

وفى قصيدة أخرى يرجع فيها الى ربه ، ويثوب الى رشده ، فيخاف الله ، ويختار طاعته ، ويعاف الدنيا ويذكر غرورها وباطلها، وأوطاره التى قضاها بها ، وأن جنة الدنيا فانية ، وجنة الآخرة باقية ، وهى قصيدة رقيقة تجاوب فيها مع تجربته الحقيقية ، ومشاعره النفسية ، لذا تحس بأسرها للنفس والقلب ، ولو كان له غيرها فى قوتها وما تحمل من صدق التجربة لكان من شعراء الزهد

دون منازع ، ولصح أن نسلكه فى ميدان شعراء الزهد الكبار من أمثال أبى العتاهية : استمع الى هذه القصيدة وما فيها من حسن جرس ، ونغم هادىء رزين :ــ

قد كان ما كان من جهلى وطغيانى
وجاء ما جاء من نسكى وايمانى

وسر من بعد غم النفس بى ملكى
واغتم بعد سرور النفس شيطانى

فما المعمم بعد النسك من أربى
ولا المقنع بعد الزهد من شانى

نسيت الفاً بخيلا ليس يذكرنى
بذكر رب كريم ليس ينسانى

وخفت عصيان من لو شاء أهلكنى
واخترت طاعة من لوشاء أنشانى

وعفت دنيا تسمى من دناءتها
دنيا والا فما مكروهها الدانى

وهى قصيدة تقع فى واحد وثلاثين بيتاً ٠٠ وله عدا ذلك مقطعات لا تتجاوز خمسة أبيات يتحدث فيها تارة عن الموت وطهارته للنفس أو عن الدنيا ودناءتها ، أو عن الآخرة وتفريغ قلبه لها ، أو عن الزمان وعدم وفائه ، وهى خطرات تفد الى نفسه عندما تتشبع من الباطل وتحن الى الصفاء ، وربما يدفعه الى هذه النفثات مواقف مؤلمة من الحياة فيعبر تعبيرا صادقا عن مشاعره وأحاسيسه ، وكان هناك غير المذهب الشيعى والتصوف كمظهرين من مظاهر الحياة العقلية والفكرية ظاهرة ثالثة كان لها أثر فى تنظيم الحياة العقلية والفكرية وهى « ديوان الانشاء » ٠٠

ديوان الانشاء :

فقد بلغت عناية الفواطم بديوان الانشاء حدا عظيما لاتساع دولتهم وطموحهم فى بسط سلطانهم ،وكان ديوان الانشاء عندهم أداة الدعاية ومظهر الاعلان ، فهو الذى يذيع مآثرهم ، وينشر فى الآفاق محامدهم ، ويبرز من أفضالهم ما دق أمره ، وما خفى فضله ، ووضعت الدولة الفاطمية نظاما دقيقا لديوان الانشاء ، وحددت عمل كل موظف فيه فرئيس ديوان الانشاء يتسلم المكاتبات الواردة ويعرضها على الخليفة ، ويليه فى الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى يجالس الخليفة ، ويوقع على المظالم ، ويليه صاحب القلم الجليل ، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ليعرضها على الخليفة (١) • وفى بعض الأحيان كان يتولى صاحب ديوان الانشاء ادارة البريد (٢) •

وقد انعكس على الكتابة الديوانية فى هذا العصر بشكل بارز أثر العقيدة الفاطمية فلا تخلو رسالة من رسائلهم من البدء بالحمد لله ثم بالصلاة على النبى وعلى الوصى ، والأئمة من أهل البيت ، ويبرزون فى رسائلهم أن النبى هو جدهم ، وانهم أحفاده ، وكأنهم يردون فى كل رسالة على العباسيين الذين يتهمونهم فى نسبهم • وكذلك كانوا يختمون رسائلهم بالدعاء للوصى على بن أبى طالب ، وللأئمة من ذريته العاملين برضى الله تعالى فيما يقولون وفيما يفعلون •

كما شاعت فى رسائلهم المصطلحات الاسماعيلية ، والتأويلات الباطنية التى تناسب المقام الذى تكتب فيه الرسالة •

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى : جـ ٣ : ٤٩٠ — ٤٩٢ •

(٢) الخطط : للمقريزى : جـ ٢ : ١٤ ، ومصر فى عصر الدولة الفاطمية : ١٨٧ •

ولقد دفعت الحياة الرخية الى التأنق ، فكما تأنق الناس فى زيهم ، وطعامهم تأنق الكتاب فى فنهم حتى تبلور الفن الكتابى ، وتحددت قواعد الرسالة ، فأصبح السجع مظهرا عاما لدى كتاب الرسائل ، وظل ملتزما بعدهم حتى غالى فيه القاضى الفاضل ، فعرفت طريقة الرسالة البديعية فى العصر الأيوبى « بطريقة القاضى الفاضل » ·

كما كثر الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين الرسالة بعض معانيه وآياته ، وأولع الكتاب باستخدام الجناس ، وكلفوا بمراعاة النظير ، والجمل القصيرة فى غالبها التى تتفق فى الوزن والموسيقى وينتقل الكاتب من معنى الى معنى فى خفة وانسياب مما يدل على فطنة الكاتب وقدرته ، كما يدل على تمكنه من صنعة الكتابة ، وأنها تجرى فى دمه وفى عروقه ·

وبالجملة فقد أصبحت العناية بالألفاظ فى ذلك العصر ، ورصفها وحسن تنسيقها ، مظهراً أصيلا فى فن الكتابة فى مصر والشام ، وانساب هذا الفن عبر الزمن فلم تتخلص منه الكتابة الا فى عصرنا الحديث ·

فى العصر الأيوبى :

وقد تسلمت الدولة الأيوبية ديوان الانشاء منظما ذا رسوم وقواعد ، وكتابته ذات طابع فنى أصيل ، وقد بدأ الاشراف عليه كاتب ألمعى قدير ، شهرته فى فن الترسل كانت حديث رجال البلاغة العربية بل حديث كل من تعرض للعصر الأيوبى وقد كتب ما لم يكتبه أحد قبله ولا بعده (١) ، ذلك هو القاضى الفاضل

---

(١) شذرات الذهب : لابن العماد جـ ٤ : ٣٢٥ ·

ذو العبارة الرشيقة والسجع والتجنيس ، والوصف المحكم الدقيق، فكأنه مهندس بارع ولذا خطا بديوان الانشاء خطوة موفقة ٠

والمتطلع للرسائل الديوانية فى هذا العصر يجدها أدق تعبيرا ورصفا وابداعا أنها فاقت الشعر فى هذا الميدان ؛ ذلك لأن هذه الرسائل كانت توجه وخاصة فى عهد الحروب الصليبية — الى مقام الخليفة العباسى تزف اليه بشائر النصر على العدو ، أو تصف له بلاء الجند فى الحرب ، فكانت الرسالة كأنشودة النصر التى يعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير ، فلذا كان الكتاب يتوخون الجزالة فى اللفظ ، والفخامة فى المعنى ، وذلك بما يتفق ومكانة الممدوح ، وعلو منزلته بين الناس ، وبخاصة اذا كان الممدوح هو السلطان أو الخليفة ، وبما يتفق وموضوع الرسالة من قوة أو رقة أو لين(١) ٠

وعلى هذا النهج سار الكتاب بعد القاضى الفاضل ، وكان لزاما على من يتولى رياسة الديوان أن يكون قديرا فى هذا الفن ، وأن ينحو نحو القاضى الفاضل ، والحقيقة أن أثر هذه الطريقة لم يصب كتاب الدواوين وحدهم بل تأثر به كثير من الكتاب ، وكتبت معظم الكتب التى ألفت فى هذا العصر على هذا النمط — ديوانية أو غير ديوانية — تأثر بها الأسعد بن مماتى ٠ وتأثر بها الوهرانى ، على الرغم من أنه وفد الى مصر ، ولم تكن له قدرة على الكتابة الجدية، فسلك طريق الهزل فقد كتب على لسان بغلته الى الأمير « عز الدين موسك » أحد أمراء الدولة الأيوبية : « بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠ المملوكة (ريحانة) بغلة الوهرانى تقبل الأرض بين يدى المولى عز الدين حسام أمير المؤمنين ، نجاه الله من حر السعير ، وعطر بذكره

---

(١) الادب المصرى من قيام الدولة الايوبية : للدكتور عبد اللطيف حمزة : ١٧٧ ٠

قوافل العير ، ورزقه من القرط والتبن والشعير ، وسق مائة ألف بعير ، واستجاب فيه صالح الأدعية من الجم الغفير ، من الخيل والبغال والحمير ، وينهى ماتقاسيه من مواصلة السير وسوء القيام والتعب فى الليل والدواب نيام ، فقد أشرفت مملوكته على التلف، وصاحبها لا يحتمل الكلف ، ولا يوقن بالخلف ولا يحل به البلاء العظيم الا فى وقت حاجتها الى القضيم ، ومعلوم يا سيدى أن البهائم لا توصف بالحلوم ، ولا تعيش بسماع العلوم ، ولا تطرب الى شعر أبى تمام ، ولا تعرف الحارث بن همام ، ولا سيما البغال التى تشتغل فى جميع الأشغال ٠٠ شبكة من القصيل أحب اليها من كتاب التحصيل ، وقفة من الدريس أشهى اليها من فقه محمد بن ادريس ، ولو أكل البغل كتاب المقامات مات ، فان لم يجد الا كتاب الرضاع ضاع ، ولو قيل له أنت هالك مالم تأكل موطأ ابن مالك ما قبل ذلك ، وكذلك الجمل لا يتغذى بأبيات الجمل ٠٠

فعلى الرغم من ميل الوهرانى الى الهزل الا أنه التزم الطريقة الفاضلية ، وان كره القاضى الفاضل وأبغضه ، فاستهواه السجع وأعجبه الطباق ، واصطنع التورية ٠

أثر هذا المذهب :

لقد أثر المذهب الفاضلى على كثير من الشعراء وبخاصة الشعراء الكتاب فمالوا الى المبالغة فى استخدام الموسيقى اللفظية ، واختيار الالفاظ الفخمة ، ذات الجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع ، وتلاعبوا بالالفاظ تلاعبا ظهر فيه أثر الصناعة ، وأثر التكلف ، وأسرفوا فى ذلك كله اسرافا يدل على طول باعهم فى هذا الفن ، ومال هؤلاء الشعراء الى استخدام البديع من جناس وطباق وتورية، وبالغوا فى ذلك حتى ظهر فى فنهم هذا التكلف المصنوع الذى يبعد كل البعد عن الطبع ، وأصبح مذهبهم الفنى بدعة العصر ، وأصبح

على كل شاعر أو أديب يطمح في الوصول الى القصر أن يلتزم هذا المنهج ، ولا سيما وأن القاضي الفاضل وهو الوزير الأول ، وصاحب الحل والعقد في الدولة الايوبية ـ قد بالغ في التزام هـذا الفن حتى عرف به ونسب اليه ، وانعكس هذا اللون على الشعراء وتأثروا به كثيرا ، نذكر من هؤلاء «ابن الساعاتي» و «ابن سناء الملك» و «المهذب بن الزبير» و «ابن قلاقس» و «الأسعد بن مماتي» و «ابن النبيه » وغيرهم من شعراء هذا العصر(١) .. وان كان بعض هؤلاء الشعراء قد حاول الخروج على هذا المذهب وهجنه ، «كالأسعد بن مماتي» الذي لم يكن يميل الى الجناس ، ودعا الى الابتعاد عنه في الفن ، فهو الذي يقول :ـ

طبع المجنس فيه نوع قيادة
أو ما ترى تأليفه للأحرف ؟ (٢)

واليك ما كتبه القاضي الفاضل في مدح العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين الأيوبي لنتبين مدى انعكاس هذا الفن على الشعر حتى استحال الشعر الى لون من الهندسة اللفظية ، ومطلع هذه القصيدة :ـ

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا
لكن أحبابنا بالوصل ماجادوا

وفيها يقول :ـ

فيهن من شبه الغزلان أربعة
ثغر ، وطيب ، وأحداق ، وأجياد
وقد بكت الفتى العشاق أربعة :
صب ، وفرش ، وسمار ، وعواد

---

(١) خزانة الادب للحموي : ٥١ .
(٢) الحموي : خزانة الادب : ٢١ .

هيهات يصدق منك الظن أربعة
عهد ، وود ، وأقوال ، وميعـاد

له من الغصن الريان أربعـة
عال ، وباه ، وميـال ، ومياد

ولى من الدهر عما رمت أربعة
قلب ونطق واخـلاد واحماد

يدبر الملك من عثـمان أربعة
عزم ، وحـزم ، وأفكار وأرصاد

وفيه من صادقات السحب أربعة
فيض وسـيل وابراق وارعـاد

يأوى الى بابك المفتـوح أربعة
ضـعفى ولهفى ووراد وزواد

وبهذه الطريقة ، نظم القـاضى الفاضل أربعة وأربعين بيتا فى نهاية الشطر الأول من كل بيت لفظ أربعة ، وفى بقية البيت توضيح هذه الأربعة ، وبهـذا استحال الفن عنده الى نـوع من الهندسة والموسيقى اللفظية ، ولا بن سناء الملك قصيدة فى مدح العزيز عثمان بن صلاح الدين ، تأثر فيهـا كذلك بالفن الفاضلى فى الكتابة ، والمغالاة فى البديع وفيها يقول :ـ

من منصـفي من حاكم جـائر — أبلج مثـل القمر الزاهر
قـد كسر الجفن فطـار الحشا — ما أفتـك الكاسر بالطائر
(يا هجرى) ليت ندائى اذا — ناديتـه كان (بيـا زائرى)
قم نزجـر الهم بكأس الطـلا — ليـلة لاناه ولا زاجر(١)

(١) هذا الشطر من البيت مقتبس من قول وضاح اليمن : فأسـقط علينا كسقوط الندى ليلة لاناه ولا زاجر .

ولابن الساعاتي قوله :ـ

والطير يقرأ والغدير صحيفة
والريح تكتب والغمامة تنقط

فقد اهتم بمراعاة النظير اهتماما منقطع النظير ، ولذلك ترى « العماد الأصفهاني » يقول : « ان مذهب القاضي الفاضل كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع»(١)

وكان العماد الأصفهاني يلتزم الألوان البديعية محتذيا الطريقة الفاضلية كغيره من الشعراء الكتاب الذين التفوا حول القاضي الفاضل وقلدوه ، وقد كتب رسالة الى القاضي الفاضل وتحدث عنها فقال : « وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق ، والترصيع والمقابلة ، والموازنة والتوشيع(٢) » . وقد شاع الجناس والطباق حتى لايكاد يخلو شعر شاعر من التزامهما. وأما التورية والاستخدام فكما يقول ابن حجة الحموي : « ما تنبه لمحاسنهما وتيقظ ، وتحرى وتحرر الا من تأخر من الشعراء والكتاب ، وتطلع من العلوم ، وتضلع من كل باب ، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى هـــو الذي ذلل منهما الصعاب ، وأنزل النـاس بهذه الساحات والرحاب حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصر، وخفقت رياحهم بالاخلاص في نصره كالقاضي السـعيد هبة الله ابن سناء الملك ، ومن انخرط معه في هــذا السلك ، ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج في ذلك الأوان ، ومن جاء بعدهم من التابعين باحسان الى أن جاء بعدهم حلبة أخرى(٣) .

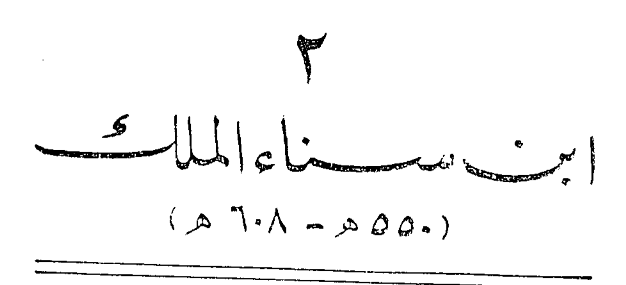
---

(١) العماد : الخريده : جـ ١ : ٣٦ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) خزانة الادب : ٥١ .

في هذه الظروف السياسية ، وتلك البيئة الإجتماعية ، والحياة العقلية والفكرية نشأ «ابن سناء الملك» . وســـوف نجلو للقارىء نشأته ، ونميط اللثام عن أسرته وعلاقاته بالوزراء وبالأدباء وبغيرهم فى الفصل القادم .

ابن سناء :

- مولده
- نسبه وأسرته
- نشأته
- علاقته بالقاضى الفاضل
- علاقته بالوزراء والأمراء
- المناصب التى وليها
- مجالسه ومنادماته
- أخلاقه
- مذهبه الدينى
- آثاره العلمية
- وفاته



مولده :

فى سنة ٥٥٠ هـ فتحت الدنيا ذراعيها لاستقبال مولود جديد هو ابن سناء الملك ، فقد روى ابن خلكان فى وفياته نقلا عن العماد الكاتب فى فريدته : « أنه كان عند القاضى الفاضل فى خيمته بمرج الدلهمية فى دمشق فى الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٥٧٠ هـ فأطلعه على قصيدة لابن سناء جاءته من مصر ، وذكر أن عمره لم يبلغ العشرين .. » (١) . ونحن نرجح هذا التاريخ لمولده لأنه فى سنة ٥٧٣ هـ عرض ابن سناء فى احدى قصائده بمن مدحهم من الشخصيات البارزة فى المجتمع ولم يلتفتوا اليه فقال :ـ

(١) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢٨ .

تكمل فضلى قبـل عشرين حجة
فكيف وقـد جاوزتها بثـــلاث

وأنفقت عمرى فى مدائـح معشر
كمـوتى ولو أنصفت كن مراثى

وبذلك يكون الشاعر قد حدد عمره ، وتاريخ مولده ، وأنه ولد فى سنة ٥٥٠ هـ ٠

نسبه وأسرته :

لقد شب أبو القاسم القاضى السـعيد هبـة الله بن القـــاضى الرشيد جعفر بن المعتمــد سناء الملك ٠ فى ظـــل أسرة عرف المجد طريقه اليهـــا ، ونعمت بالغنى والثـــروة ، واغترفت من الفضـــل والمعرفة ، وكانت موضع التقدير من ذوى المكانة والمنزلة ، فنعم ابن سـناء بما أضفته النشأة عليـه ، وكانت سـببا فى رفع ذكره ، وعلو شأنه ، وطالما شكا الى أستاذه القـــاضى الفاضل حسد أعدائه وحقدهم عليـــه ، وتعبيرهم له بأنه لولا أبوه ما كان يدخل دائرة العلماء ، ويحظى بمايحظى به الشعراء ، لأن أباه فى الوظيفة ، ولولاه لكان خادما فيها ، وقد أشار ابن سناء الى ذلك فى قصيدة وجهها الى القاضى الفاضل جاء فيها :ـ

تقــول أعادى لـولا أبو ك لمـــا كنت تدخل ذاك الحرم

ومن ثم نعلم أن والده كان يشغل منصبا هاما ، ولقب الابن والوالد يشيران الى أنه كان ينظر اليهما من السلطان نظرة التقدير والاكبار ٠ ويبدو أن والده ـ فضلا عن منصب القضـــاء الذى كان يشغله ـ كان بالأدب شـــغوفا ، وبرجاله ولوعا حتى أنه اشترى نصف نسخة من كتاب «صـــحاح الجوهرى» بما يعادل وزنها من

الدراهم ، وليس ذلك ـ أيما كان الدافع الا فهما لقيمتها ، وتقديرا لكنوزها ، فلا عجب أن يكون شاعرنا قد ورث عن أبيه حب الأدب والولوع به ، لأنه غذى به فى طفولته ، وتنسمه مع كل اشراقة من أبيه ، ومع كل من يتصل به من عارفيه ومحبيه • والى ما عرف به والده من علو كعب فى الكتابة والادب ، يشير الابن الى ذلك فى قصيدته النائية التى مطلعها :ـ

ما هزة الغصن الا ملك هزته
وذلة الصب الا طوع عزته

فيرى أن أنامله اذا امتطت القلم سال على القرطاس درا وجوهرا لا صنعة فيه ولا تكلف ، بل يرى أنه ينبت روضا وارفا ، تتعرف على ثمره الشهى قبل أن ينضج :

اذا امتطى القلم العالى أنامله
أبدى الجواهر من مكنون مكنته

وينبت الطرس روضا من أنامله
يكاد يبدو جناه قبل منبته

ما أظهر الله هذا الفضل من بشر
الا وأودع سرا فى سريرته

ثم يفتخر بانتمائه الى ذلك الوالد العظيم ، ويعترف بأن المجد قد تسرب اليه لأنه تشرف ببنوته لذلك الوالد :ـ

لا تعجب الصد من مجدى فان يدى
لم تبتن المجد الا من بنوته

وفى قصيدة أخرى يفتخر بعلمه ومنزلته ، وذكائه المتقد الذى يجعل الشمس شرارة اذا ما قيست بناره المتقد ، وذكائه المتوقد

فاستمع اليه يقول :ـ

وبسطة فى علمه لم تزل تبسط عندى حجج الحسد
ورتبـــة ما فوقهـــا رتبة لأنهـــا أعلى من الفـــرقد
ونار فهم خلت شمس الضحى شرارة من جمرها المـوقد

ثم يرى أن مما يسعد والده أنه كان سببا فى طيب أصله وعلو محتده ، فيقول :ـ

يكفيك أنى بك يا سيدى
قــد طاب أصلى وزكا محتدى

وفى ذلك فخر بنفسه واعتداد بوالده .

فالخـلق لمـــا كنت لى والدا
تشـــهد أنى طـــاهر المولد

وأننى للدهـــر مســـتعبد
وهو لغـــيرى أى مســـتعبد

ويبدو أن شاعرنا كان أثيرا لدى والده ، وكان يحب أن يمنحه الاستقلال الشخصى ويثـــق فى حسن تصرفه ولذا كان يهبه بعض ممتلكاته وعقاره ، وبالطبع مثـــل هـــذا التصرف لا يتم الا اذا أنس الوالد فى ولده رشدا ، وحسن تصرف ، فقـــد وهبه والده قصرا وحديقة جميلة ، فشكره ابن سناء عليهما ، وأفاض فى وصفهما بما لا يدع مجالا لواصف فقارن بينها وبين جنة الخلد ، ووجد بينهما صلة ونسبا حتى أن آدم لو حلها بعد ما أخرج من الجنة لم يحزن ولم يكمد بل ان الكافر لو طمع فى مثلها يـوم القيامة لم يكفر ولم يعرف الجحود طريقا الى قلبه ، فقد كان فى وسط الحديقة نهر تنعكس عليه الشمس ساعة الأصيل فتتوهج زرقته ، وتداعب النسمات

العليلة الندية صفحته ، فتفرق بين حبات المياه حتى ليخالها الرائى برادة من العسجد • وزهرها المتعالى فوق أشجارها حبات عقد ثمين فى جيد فتيات حسان • وقد علت على أغصانه الطيور المغردة التى كانت تغنى فتعيد الى الذاكرة صوت معبد بن وهب الذى عـرف بجمال الصوت وضرب به المثل فى بنى أمية فاستمع اليه يقول مخاطبا والده :

شغلت عن شكرك عن جنة
تشغلنى عن همى الأنكد

لى راحة فيها ولى راحة
تملك أقصى عيشى الأرغد

جنة ملك حين ملكتها
شككت فى أنى لم أخلد

لو حلها آدم من بعد ما
أخرج لم يحزن ولم يكمد

أو طمع الكافر فى مثلها
فى الحشر لم يكفر ولم يجحد

يحكى أصيل الجو فى نهرها
سحالة العسجد فى المبرد

وزهرها يحكى بأشجارها
قلائداً تعلو على خرد

فكم على الأغصان من منشد
بل كم على الأغصان من معبد

لا سـيما مذرمتها مقعـدا . ما مثلهـا فى الخلد من مقعد

أقامه الحسن فمـا مقعد الا اذا جـاراه كالمقعـد

أما جده : سناء الملك فقد ادعى الصفدى نقلا عن ياقوت الذى أسنده بدوره الى الصاحب الوزير جمـال الدين الأكرم ـ أنه كان يهوديا غنيا يسمى « رازن » ثم اعتنق الاسلام ، وكان يشتغل فى تغيير النقود فى القاهرة ، ومات بعد ذلك مورثا ابنه القاضى الرشيد عمليات اقراض النقود ، وعمليات أخرى كون منها ثروة عظيمة ، ويضيف الصفدى الى ذلك أن القـاضى الرشيد كان محدود الثقافة قليل المعرفة .

وبمناقشة الصفدى يتضح لنا بعد هـذا الادعاء عن الحقيقة والصواب ، فأولا : كيف يتأتى وصف جده بأنه يهـودى مع أن والده (أى والد جده) يسمى محمدا . وثانيا : لم نعثر لياقوت الذى أسند اليه هذا القول على ما يؤيد ذلك بل على العـكس أشار فى الترجمة التى أوردها لابن سـناء بالتقدير والاحترام لكل من أبيه وجده(١) . فجده لم يكن يهوديا ، وانما ذلك كله اتهام وصمه به أعداؤه رغبة فى التشهير به ، والنيل منه ، والحط من شأنه ، وقد كان جده يتمتع بمكانة عليه جعلت شاعرنا يحزن كثيرا لفقده على الرغم من طول عمره فقد مات عن ستة وتسعين عاما فى سنة ٥٨٠هـ، وقد حرص على أن يسير فى جنازته وهو فى شـدة المرض ، ورثاه بقصيدة حزينة بلغت تسعة وثلاثين بيتا ، مطلعها :ـ

---

(١) معجم الادباء جـ ١٩ : ٢٦٥ .

خانت جفونى لمـــا لم تفض بدم
لـكن وفى الجسم لمـــا فاض بالسقم

وقد أشار فيها الى حرصه على الخروج فى جنازته على الرغم من شدة مايعانيه من المرض حتى لم يستطع السير فحمل على الأعناق وقد تحسر على أنه لم يكن فى صحته ، اذ لو كان صحيحا معـــافى لسار على رأسه أو قدمه :ـ

خرجت خلفك محمـــولا كما خرجوا
بجســـمك الطهر محمـولا على القمم

يا حسرتى اذ رآنى راكبا لهم
وما مشيت على رأسى ولا قدمى

وقد كانت عاطفة الشاعر نحو جده قوية شديدة ، فأحبه حبا دافقا ظهر ذلك فى حرصه على حضور الجنازة على الرغم مما يقاسيه من المرض ، كما ظهر ذلك فى شعره حيث صرح بأنه قد حاز الحزن كله على فقده ، وأنه أولى الأبناء جميعا وأحقهم بهذا الميراث ولا يكون ذلك الا اذا اتقدت درجة الحب ، وأن الجـد كان يخصه بالفيض الغزير منه :ـ

قـــد حزت حزنك مـيراثا فكنت به
أولى وأحـــرى من الأولاد كلهم

وقد انصرف جده الى عبادة الله وطاعته ، والبر به ، والتزود بخير الزاد من التقوى للآخرة ، فأطال الركوع والسجود ، وسهر منتصبا فى عبادة الله :

خمسا وتســعين تســعى فى عبادته
لم تشـــك من ملل فيهـــا ولا سأم

قـــد انحنى الظهر وانهــدت قوائمه
من الركوع اليـــه لا من الهــرم

ســهرت منتصبا لله محتسبا
ومن يرد جنة الفردوس لم ينم

وجنة الخلد بالأعمــال تدخلها
لا بالحظوظ كما قالوا ولا القســم

من يعلم الله فيه الخير أسمعه
بشرى السعادة قبل الخلق فى القدم

ومن صــفت منــه عين فى الفؤاد رأى
ما خطه الله فـــوق اللوح بالقــلم

يا راحلا وجميــل الذكر يخلفه
بقـــاء ذكرك مسلاة عن العــدم

وهذه القصيدة من بين القصــائد التى طار ذكرها ، واشتهر أمرها ، وأرسل القاضى الفاضل الى القاضى الرشيد (والد شاعرنا) يعاتبه فيها ويلوم ابنه لأنه سمع بخبرها من أفواه الشعراء ، وكان يتوقع أن تصله فقال فى رسالة بعث بها اليه « وقد بلغنى حديث المرثية ، ومن العجب أن يبلغنى خبرها من غيركم ، ومن القبيح أن تحوجونى الى أن أطلبها من سواكم ، ولقد تكفى الاشارة » . وقد جاءت هذه الرسالة كاملة فى كتاب (فصوص الفصول)(١) .

وقد كانت منزلة جده فى المجتمع عالية ، حتى أن ابن سناء

---

(١) فصوص الفصول وعقود العقول : لابن سناء الملك مخطوط بدار الكتب

لم ينس تلك المنزلة بل افتخر بهـــا وأبرزها وجعل قدره ومكانته عالية حتى فى الموت فلن يسوى الموت بينه وبين غيره من الموتى :ــ

لا تحســـبوا كل ميت مثـــل ميتنا
هيهات هيهات والموتى ذوو قيم

ثقافته ــ أساتذته :

فى هــذه البيئة التى جمعت بين الثقــافة والغنى ، والمنــزلة والجاه ، نشأ شاعرنا وترعرع ، رعاه والده ، واهتم بتعليمه وثقافته فأحفظه القرآن الكريم على الشريف الخطيب (١) . ثم درس اللغة والنحو فى حلقات « عبد الله بن برى » المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ، وفى سنة ٥٧٠ هـ اتجه الى الاســكندرية ليدرس الحديث على المحدث الحافظ أبى طاهــر السلفى (٢) . ولقـــد كان الســـلفى صاحب مدرســـة يقصــدها طلاب العلم ومحبو المعرفة ، والحديث من كل حدب وصــوب ، وكان الحافظ مثـــلا أعلى فى الحفاظ على الدين والتقوى ، واحترام النفس حتى أمه صلاح الدين وجلس اليه كما يجلس سائر التلاميذ ، ووجد فى مجلسه زادا فكريا ودينيا دفعه الى أن يختلف اليه كلما سنحت له الفرصة ، وواتاه الوقت . على هذا الشيخ الجليل تتلمذ ابن سناء الملك ، ووجد عنده خير زاد حتى أحب الاسكندرية وفتن بها ، على الرغم من أنه كان يضيق بالغربة والبعد عن القاهرة وكان اذا ترك الاسكندرية يتركها مغتم النفس كئيب الفؤاد ، وقد مدح أهلها ، ووصفهم بأن غايتهم كسب المعالى ، وهمهم أن ينالوا رضى الناس وثناءهم ، فلا يفعلون الا البر ، ولا يتضجرون من الغرم بل يعدونه مغنما وكسبا ، واستمع اليه يقول :ــ

---

(١) حسن المحاضرة : للسيوطى ج ١ : ص ٢٨٣ .

(٢) حسن المحاضرة : للسيوطى ج ١ : ص ٢٠٠ .

فهل عنـــدكم أنى نــزلت ببـلدة
هى الثـــغر الا أنــه بــارد الظـلم

ترى أهله كسب المحامد فى النهى
وحوز العلى فى البر والغنم فى الغرم

شـــكرتـــكم يأهـــل اســكندرية
لأنــكم أنأى الأنــام عن الــذم

فان أنا واصـلت المقـام فعن رضى
وان أنا أزمعت الرحيل فعن رغمى

ســـــأحبوكم رق القوافى فاننى
بغير اختـــلاق مالك النثر والنـــظم

وقد أشاد بأستاذه الســـلفى ومدحه بما يمدح الفاطميون به أئمتهم فجعله كعبة الاسلام يحج اليه فيجد فى رحابه الهدى ، ويجد فى جنباته العلم والمعرفة فهو علم العلم ، وأبو العلماء ، وهو خير امام يقصده الطلاب الخيرون فيجدون منه خير مرشد ، وأعظم هاد وهو بعمله وعلمه وتدريســـه يحيى الشريعة الأحمديـة ، ويذيع محاسنها ويثبت دعائمها فى نفوس المسلمين ، وقد صفا قلبه حتى ليجيب الله دعاءه ، ويسمع نداءه لذا كان جديرا بالحمد والثناء ، ومنطقه القول الفصـــل فى كل القضايا فاذا ما احتدم الجدال بين شياطين الضلال وأذاعوا ما يزيغ القلوب والأبصـــار جاءت أقواله ككوكب الرجم ، تبدد زيفهم ، وترسخ الحق فى النفوس ، فاستمع اليه يقول : ـ

فجئت الى الاســـكندرية قاصـــدا
الى كعبة الاســـلام أو علم العـلم

الى خير دين عنــــده خير مرشـــد
وخير امـام عنـده خير مؤتـم

الى أحمـد المحيى لشريعـة أحمـد
فلا عدمت منــه أبا أمة الأمى

حمى بدعاء أو همى بفوائــــد
فبورك من مازال يحمى كمـا يهمى

تقوس تقويس الهـلال تهجـدا
وذاك هلال يفضـح البـدر فى التم

اذا ما شـــياطين الضــلال تمردت
جـدالا فمن أقـواله كوكب الرجـم

أتيت لـــه مستشفعـا بدعائه
يقيل به جرمى ويشــفع فى اثمى

ويبدو من هذا أن ابن سناء أنس فى استاذه أباً روحياً ، وصفاء نفسيا جذبه اليه ، فهام بالآخرة ، وتجرد من باطل الدنيا ، وتاب الى ربه وأناب على يديه ، والتمس الغفران من الذنوب وحفظ لأستاذه فضله ، ولأهل الاسكندرية جميعهم حبه وبره .

لقد هيأ « ابن سناء » نفسه بذلك الرصيد من علوم الفقـــه والدين واللغة للعمق فى الأدب ، ولذا لم يكن سطحيا فى شعره .

وكان ملما ببعض اللغات الأجنبية المنتشرة فى تلك الحقبة ، فهو يجيد الفارسية ، ويتقنها ، ويشير الى ذلك بقوله فى احـــدى قصائده التى وجهها الى القاضى الفاضل :

وعز على العـــرب أنى حفظـ ـــت برغمى بعض لغات العجـم

وقد استطاع أن ينشد باللغة الفارسية ، ويستخدمها فى كتابة خرجة الموشحات ، وكان المصريون السابقون له يضعون الموشحات بخرجات مغربية استمع اليه يقول فى موشحته التى مطلعها :

فى خديك من صير اللاذ

ثياب الياسمين

الى أن قال :

وخود كما شبت طفلة	**كغصـــن**	**مـايس**
أرادت أن تكون خلة	**لظبيـــى**	**كانس**
فلمـــا جنت منه قبلة	**شـــدت**	**بالفارس**
دانستى كى بوسه بمن داد	**دهـــا**	**أنكسترين**
أواركواى دست من باسن	**ببواسـته**	**شـــبين**

ومعنى هذه الخرجة : « هل تعرف متى قبلنى ، ان فمها كان شاهدى على هذه القبلة التى منحتنى اياها » (١) ٠

والظاهر أن الفارسية كانت منتشرة فى أرجـــاء الوطن الاســلامى آنذاك انتشـــار اللغة الانجليزية فى بلادنا الآن ، وبخاصة بعد ترجمة كثير من كتب العلم والأدب عنها ، ونبوغ كثرة من أبناء الفرس فى الأدب والفن والعلم ، مما جعل الآباء المتفتحين يعدون أبناءهم بهذه اللغة الحية ، وكان القاضى الرشيد من الوعى والفطنة بحيث أغرى ابنه وشجعه على تعلم الفارسية ٠

---

(١) دراسات فى الشعر للدكتور محمد كامل حسين ٠

وكان ملما بعلوم الفلك حتى كثرت اشـــاراته لأسماء الكواكب والنجوم والأفلاك ، ومنازلها ومايدور حولها من قصص وأساطير استمع اليه يقول : —

أيا بصرى لا تنظـــرن الى بصرى
فانى أرى الأحبـــاب فى بلدة أخرى
وما بلدة لم يســـكنوها ببلدة
ولو أنها بين الســـماكين والشعرى

ويقول فى مطلع قصيدته التى يمدح فيها صلاح الدين :

أرى كل شىء فى البسيطة قد نما
بعدك حتى قد نمت أنجم السما

ثم يشير « الكف الخضيب » وهو أســـم نجم فى السماء ، ويتحدث عن رصد النجوم ، والمنجمين ، ومنازل النجوم فى السماء الى غير ذلك مما يدل على ثقافة واطلاع فى علم الفلك الذى كان من علوم ذلك العصر وأسس الثقافة آنذاك .

علاقته بالقاضى الفاضل :

وكان القاضى الفاضل أثيرا لدى الشاعر لأنه كان له أستاذا وموجها ، وكان لوالده صديقا محبا ، وكان ابن سناء مدينا له بشهرته الأدبية ، ومنزلته السنية ، ومناصبه الهامة ، وتوجيهاته الفنية التى خلقت منه شاعرا يحتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره بعد أن صادف فى بداية أمره من المتاعب ماجعله يعرض بمن يمدحهم فيقول فى سنة ٥٧٣ هـ :

تكمل فضـــلى قبل عشرين حجة
فكيف وقـــد جاوزتها بثـــلاث

وأنفقت عمـــرى فى مدائح معشر
كمـــوتى ولو أنصفت كن مراثى

وقد عاونه القاضى الفاضل معاونة تذكر فتشكر ، ذكرها ابن سناء وشكرها ، وأشاد بهذه الصـــلة فى كتابه « فصوص الفصول » حيث يقول : « وهو الغنى وأنا المحتاج اليه ، وهو المعطى وأنا الآخذ منه ، وهو الاستاذ وأنا التلمـــيذ له والمتعلم منه » .

ولقد كانت رسائل الشاعر وقصائده تصل تباعا الى القاضى الفاضل عندما كان فى دمشق ، كما كانت ردود القاضى الفاضل ورسائله تصل شاعرنا فى انتظام ، وكتاب « فصوص الفصول » حافل بالرسائل التى أرسلها القاضى الفاضل الى القاضى الرشيد والى «ابن سناء» ، وموضوعاتها تدور حول الشاعر ، ورأى القاضى الفاضل فى قصائده ، وتعليقه عليها ومن تلك الرسائل نفهم أن الصلة بين القاضى الفاضل وبين الشاعر صلة وطيدة ، قواها صلته السابقة بأبيه القاضى الرشيد ، وزادها تأكيدا قرابة الأدب ونسبه ، وعلى الرغم من أن القاضى الفاضل أعلى مكانة ، وأرفع منزلة ، وأكبر سنا الا أنه وجد فيه ميلا شديدا الى الأدب، وقدرة على الشعر ، لذا رضى أن يكون له موجها ومرشدا ، وكان فى نقده قصائده رقيقا رفيقا ، يميل الى تشجيعه والأخذ بيده ، فكان يرى أنه مايقول من قصيدة الا وتكون أحسن من أختها ، وما يرينا من آية الا وهى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروســا الا وقد جمع بين حسنها وبختها وقلما يجمع الحسن والبخت ، ولهذا

قيل : « وقد تمنى المليحة بالطلاق وعقائله المليحة لا تطلق ولا تطلق وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن هـــــذه بالقلوب تعلق ، وبالضلوع تعنق ،فالمعلقات بعدها زادت على عدتها ، وفضلتها هذه بجدتها وجودتها ٠٠ »

وهكذا كان القاضى الفاضل يدفع الشـــاعر قدما بآرائه وتقريظه ، وكان لهـــذا الاتجاه أثر مشكور فى تقـدم الشاعر واحرازه قصب السبق والتفوق حتى حسده الشعراء الآخرون وحقدوا عليه ، وقد اعترف ابن سناء بفضل أستاذه عليـــه حيث يقول : « ٠٠٠ انه كثر قليلى ، وسمن هزيلى ، وفخم ضئيلى ، وأعطانى من المدح ما لا أستحقه ، ومنحنى من الوصف ما لا أستوجبه ورفع أقوالى فوق قدرها ، ودفع لعقائلى فوق مهرها فضلا منه ومنا ، واحسانا وحسنى ٠٠٠ (١) »

ولقد خص الشاعر القاضى الفاضل بسبع وثلاثين قصيدة من قصائده المدحية التى بلغت الخمسة والسبعين ، ثم اتجه بما بقى الى السلاطين كصلاح الدين والعزيز والأفضل ، والعادل والكامل وغيرهم من الملوك والوزراء كالملك المظفر تقـــى الدين ، والملك الظاهر غازى والوزير صفى الدين بن شكر ، كمـــا مدح والده القـــاضى الرشيد ، والقـــاضى الأشرف ابن القـــاضى الفاضل ، وشخصيات أخرى كالطبيب اليهودى الرئيس موسى ٠٠

وقد أمكن أن نميط اللثام عن تاريخ أكثر هذه القصائد وتكشف بذلك عن تطور العلاقة بين الشاعر وبين القاضى الفاضل، ففى سنة ٥٧٤ هـ مدحه بقصيدة رائية هنأه فيها بمطلع العام الجديد ومطلعها : ــ

---

(١) فصوص الفصول : المقدمة .

يا ليـلة الوصل بل يا ليـلة العمر
أحسنت الا الى المشـتاق فى القصر

وبعد مقدمة غزلية بلغت الثـلاثين بيتا خلص الى المـدح ، فشكره شكر الأرض للمطر ، وشكر سواد العين للنظر ، وبين فضله وعطفه المتزايدين عليه ، ويبدو أن القاضى الفاضل كان قد ألحقه بديوان الانشاء فى ذلك الوقت فأشار الى ذلك ، والى النعم التى غمره بها بقوله : —

دخلت جنة عدن فى الحيـاة به
فلست أقـرأ الا آخر الزمر (١)
وقلت قـولوا لأيام مغـيرة
غـرى المهـدد يا أيام بالغـير
وصرت ألهو وليل الأمن يشملنى
طورا مع السمر أو طورا مع السمر
قبلت ثغر الأمـانى اذ ظفرت به
والثغـر يحسن بعد الفتح والظفر

وقد بالغ فى مدحه مبـالغة خرجت به عن حـدود الصدق الفنى ، اذ جعل الدهر مفتقرا اليه ، يمد كفه مستجديا بينما يمد الفاضل لحظة محتقرا اياه ، وقلمه فى يده قدر الله يخط به مصائر الناس فينفع هذا ويضر ذاك : —

---

(١) اشارة الى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » آية ٧٢ من الزمر .

والدهـــــر مـد اليه كف مفتقـر
فمد للدهـر منـــه لحظ محتقر

فى كفه قلم ان شــئت أو قـــدر
يصرف الخلق بين النفــع والضرر

وفى سنة ٥٧٤ هـ توجه القاضى الفـاضل الى بيت الله الحرام فهنأه بعودته من حجته الأولى ، وقد صادفت عودته انتصارات «صلاح الدين» على الصليبيين فى «بانيـــاس» واستيلائه على حصونهم ، وأسره ملـكهم • ومطلع هذه القصيدة :

ما ثنـــاياك لـؤلـؤ مكنون
مثلهـا لم تقع عليه العيـون

وقد أشار فى هذه القصيدة الى ما امتاز به القاضى الفاضل من حسن الرأى ، وجمال التدبير ، والقوة فى موضع القوة ، واللين فى موضع اللين ، وأشار ببيانه وروعته فى الكتابة ، وأن قلمه قد غلب الحسام المرهف فمنه ترجى المنى ويخشى المنون : ـ

دبر الملك منه حـل وعقـــد
وتلافاه منه شـــد ولـين

بايعته يد السعادة والبيـــ
ـعة قد كررت عليها اليمين

واصطفاه الرأى الرشيد على العا
لم فهو الأمين والمأمون

واذا خط فى البراعة خطا
فهو نار تذكو وماء معين

بشبا من ذلك القلم المر
هف ترجى المنى وتخشى المنون

وقد توجه القاضى الفاضل الى حج بيت الله الحرام مرة ثانية فى سنة ٥٧٦ هـ ثم عاد من مكة مباشرة الى مصر بعد رحلة شـــاقة فمدحه الشاعر بقصيدته القافية التى مطلعها :

نعم المشوق وأنعم المعشوق
فالعيش كالخصر الرقيق رقيق

وقد بلغت أبيات هذه القصيدة تسعة وأربعين بيتا جعل للغزل منها ثلاثة وعشرين ، ثم انتهى منها الى مدحه بالبلاغة ، وبلوغ المدى فى الكتابة حتى ليظن أن كلامه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » : ـ

لولا اعتقادى للشريعة مخلصا
ماقلت ان كلامه مخلوق

كما مدحه بالرياسة الأصيلة فيه ، وبطلاقة الوجه ، والنوال الطليق وبالتعمق فى الجود حتى لا يستقر المال فى كفيه ـ كما كان أبو تمام يقول ـ وبأن كل من يتوق الوصول الى هذا المستوى يعجزه ذلك حتى الشمس نفسها .

ورث السيادة كابرا عن كابر
فالعرق فى أفق العلاء عـريق

معنى الرئاسة فيه بكر لا كمن
معنى الرئاسة عنـــده مطروق

الحكم فصل والكلام مفصل
والوجه طلق والنـــوال طليق

متعمق فى الجود لولا جـــوده

ماكان يشكر فى الورى التعميق

لا يستقر المال فوق بنـــانه

حتى كأن بنانه مخروق

ياطالبين ذرا عـــلاه توقفوا

ومؤملين ندى يديه أفيقـوا

لو رامت الشمس المنيرة شأوه

يوم الفخار لعـــاقها العيوق

وقد مكث القاضى الفاضل بمصر حتى نهاية عام سنة ٥٧٧هـ ثم غادرها فى صحبة صلاح الدين حيث رافقه فى هجومه على حلب ، وفى هذه الفترة وجه اليه ابن ســـناء عدة قصائد منها قصيدة لامية هنأه فيها بمولد ابنه القاضى الأشرف ويحتمل أن يكون قد نظمها سنة ٥٧٣ هـ لأنها هى السنة التى ولد فيهـــا الأشرف (١) ، ثم قدمها اليه مؤخرا ، ومطلعها : ـ

هـــلال ولكن السعود منازله

ونهـــر ولكن البحار جداوله

وفيها يقول :

فبشراك يامولى الأنام بقـــادم

الى قمة العلياء تطوى مراحـــله

---

(١) وفيات الاعيان : ترجمة القاضى الفاضل جـ ١ : ٢٨٦ .

أناك كريم النفس والصحب فالعلا .
تسـائره والمـكرمات تعـادله

وأنك مولى لا يرد مـراده
وأنى عبـد لا ترد وسائله

وما الدهـر الا خـادم أنت ربه
وما الخلق الا عالم أنت فاضله

وانه ليردد هنا بعد أن مدح المولود وهنأه به مارردده فى مدائحه الأخرى من أن الفاضل رب والدهر مربوب ، وأن مراده لا يرد وهى مبالغة ممقوتة ، بل دأب على أن يجعل نفسه عبدا للقاضى الفاضل ، ولعل هذه الصفات مما شاعت فى مدائح هذا العصر .

وقـد دفع الشاعر طموحه أن يسـعى للحصول على جائزة تقديرية من السلطان « صلاح الدين » (خلعـة شرف) وبالطبـع لم يجد غير الوزير القاضى الفاضل من هو جـدير بالتوسط له فى تحقيق مطلبه هذا فوجه اليه قصيدة دالية سنة ٥٨٠ هـ التمس منه أن يحقق وعده ومطلعها : ـ

شيب فودى رماد نار فؤادى
من رمى لمتى بهـذا الرماد

وبعد أن خص الغـزل بخمسة عشر بيتا خلص الى المدح فقال : ـ

كيف لا يرفع الزمان عمادى
وعلى الفـاضل الأجل اعتمـادى

وقد استعمل هذا المعنى فى الخلوص الى المدح أكثر من مرة ، ووصفه بالسيادة كابرا عن كابر ، وبأصـــــالة الرأى وسداد الفكر : —

ما أتته تلك السيادة عن جد
م ولكن أتته عن أجـــداد

ان يكن معرق الأبوة فى السؤ
دد فالرأى معرق فى السداد

ثم صرح بمطلبه فقال : —

اننى سوف أقتضى منك وعدا
أنت باد به فنعم البـــادى

مطلب فيـه ملبس العز اذ يلـ
ـبس ذلا جمـــاعة الحســاد

لم تزل تنبت الرياض ولــكن
لا على الروض بل على الأجساد

هو وعد قد كان لى وسؤالى
منك انجـــاز ذلك الميعـــاد

ويبدو أن ملبس العـــز هذا هو خلعة شرف ، أو عبـــاءة سلطانية ، تكون فخر لابسها لأنها هدية السلطان ، ودليل رضاه .

وبعد ذلك وصل القاضى الفاضل كثير من القصائد التى مدح بها « صـــلاح الدين » فى مناسبات عدة كتكذيبه المنجمين بانتصـــاراته وكسره صليب الصلبوت ، وكسر الصليبيين فى « حطين » مما سيأتى ذكره عند الحديث على موقف ابن ســناء

من الحروب الصليبية وفى سنة ٥٨٣ هـ مدح الفاضل بقصيدتين هنأه فى احداهما يفتح عسقلان أولهما بائية ومطلعها :

سرى طيفه لا بل سرى بى سرابه
وقد طار من وكر الظلام غرابه

وبعد المقدمة الغزلية التى بلغت واحدا وعشرين بيتا خلص الى مدحه بما هو مألوف من الصفات ، كالمجد والرفعة ، والفضل والنوال ، واعتماد الناس عليه ، ثم شكا اليه جور دهره وقسوته ، وصرح بمطالبه وطموحه فقال : ـ

أمولاى أشكو جور دهـــر مبرح
تطاول بى لما انتشى بى انتشابه

أتانى لكن أين منـــى رجوعه
وأقبل لكن أين منى ذهابه

قسا قلب دهرى بعد لين ألفتـــه
ومن لى بدهر لا يخاف انقــلابه

ولم يشر فى هذه القصيدة الى فتح عسقلان ، لا من قريب ولا من بعيد ، ولكنه أشار الى ذلك فى قصـــيدته الرائية التى مطلعها : ـ

باتت معـــانقتى ولـكن فى الـكرى
أترى درى ذاك الرقيب بما جـــرى

فبعد أن انتهى من المقدمة الغزلية التى خصها باثنين وثلاثين بيتا مدحه بما هو مألوف من الصفات ، ولكنه زفها اليه فى أجمل ثوب وأزهى عبارة فهو يقرى ضيوفه شـــعاع التبر الأحمـــر ، والقضاء يسعى لخدمته ، والأفق داره ، والكواكب معشره ،

وجعله يفوق الملوك لأن اسمه الفاضل ، وجعل بلاغته تفل حد الحسام ، ثم أشار بعد ذلك الى كسر الصليب ، وتحويل الكنيسة الى مسجد :

كسر الصليب سـميه من رأيه
فسل العدا من كان أصلب مكسرا

ولقـد أقـر الله عـين نبيـه
بمطهر جعـل الشـآم مطهـرا

مازال أو جعـل الـكنيسـة جامعـا
والأنبـل المخفـوض منهـا منبرا

فتـح الشـآم بـه وقـال زمانـه
ان كنت فاتحـه فلـن يتغـيرا

الشام دارك لو أردت أخـذته
بالارث عن آبائك الشـم الـذرا

وقد أجاب الفاضل على هذه القصيدة بكتاب أورده ابن سناء فى كتابه (فصوص الفصول) جاء فيه : « ووصل كتاب القاضى السعيد وقصيدته ووقفت من قصيدة القاضى السعيد على أدوية للشفاء ما كانت فى قدرة الأطباء ، ونسـخ استعملتهـا القلوب فعادت بصحة الأعضـاء ، فجاءت والعافيـة فى قرن ، ورخصت ما أبقت العلة من درن . وقامت بينى وبين الحمى فوفرت هذيانهـا وتلت علينـا آيات محاسن عرفت الحمى مـع اساءتها احسانا ، فنكصت على عقبها ، ودخلت فى حسها ، وكأنما كانت فى الحقيقة ماء عذبا صافيا ، ألقى على نارها فسبقها الى حطبها ، ولقد أتاه الله وله الحمد فصل الخطاب وألان له ما ألان لصاحبه من صم الحديد

الصلاب ، ولو أدركها فتليت عليه ، لتلابها مرامر المحراب ، فما أرخص وما أغلى ذلك البياع ، وما أشد وما أسد ذلك المتاع :

انا بعثناك نبغى القـــول من كثب
فجئت بالنجم مصفودا من الأفق (١)

وقد تمكن القاضى الفاضل من الحصول له على خلعة شرف من الملك الناصر « صلاح الدين » تلك التى سعى اليها وشغل بها ، وكتب الى القاضى الفاضل ملحا ومصرحا بطلبها بل ومدح الملك الناصر وطلبها فى قصيدتين من شعره ، وهذه الخلعة مرتبة أدبية ، ومنزلة اجتماعية ، ترفع قدر الشاعر بين الشعراء ، ولعلها أشبـــه بجوائز الدولة التشجيعية والتقديرية التى يمنحها الأدباء والمفكرون والتى تدل على أن الحائز عليها قدم خدمات سنيـة للدولة فـكوفىء عليها أجل مـكافأة ، ولهذا حفظ ابن سناء هذا الجميل لأستاذه الفاضل ومدحه بقصيدة حائية مطلعها :

راحت وحق الله روحى — بين المليحـة والمليــح

وأشاد فيها بتلك الخلعة

وكسوتنى خلعا هـزز — ت بهن عطفى كالصفيــح
خلـــع على خلع أتتـ — نى كالفتوح على الفتــوح
لولاك لم يعلم بأشعا — رى ولم يقرأ مـديحى
وجميـــل رأيك حين صر — ح جاء بالجـــود الصريح

ولنقف قليلا عند قوله : لولاك لم يعلم بأشعارى .. فهـــل هذا اعتراف من الشاعر بقصور شعره عن أن يصـــل الى السلطان « صــــلاح الدين » لولا مساعدة القـــاضى الفاضـــل ؟ أم أنه اقرار

---

(١) فصوص الفصول : الفصل ٤٣ ، ٤٤ .

بالأمر الواقع لأن قصائد الشاعر فى مدح الملك الناصر كانت تسعى اليه عن طريق القاضى الفاضل ؟ أم أنه تواضع الشاعر ومجاملته القاضى الفاضل ، ورغبته فى اظهار فضله ، واعلاء شأنه وتجسيم الدور الذى قام به فى مساعدته وعونه ؟

الواقع أن التواضع والرغبة فى الاشادة بالقاضى الفاضل هى التى دفعت الشاعر الى هذا القول لأنه لايقل جودة عن شعراء عصره ان لم يفقهم ، ولأن صلته بالقاضى الفاضل وعمق هذه الصلة هو الذى يدفعنا الى هذا الترجيح ٠

وبعد أن استولى « صلاح الدين » على بيت المقدس قام ابن سناء بزيارته سنة ٥٨٣هـ ، ثم توجه الى دمشق لرؤية القاضى الفاضل قال : « فوجدته مريضا مدنفا فى خطة صعبة ، وفى حالة مخطرة فخشيت أن أقيم فيجرى من المحتوم عليه مالا طاقة لى بمشاهدته ، فأقمت عنده أياما قلائل ، واعتذرت اليه بأننى وردنى عن أبى رحمه الله خبر مزعج ، وحديث مقلق ، فأعطانى دستورا بالعود عن نفس غير طيبة ، وعلى كراهية غير خافية ، فلما عدت ومن الله تعالى بعافيته كتبت اليه كتابا ، ونظمت قصيدة أعتذرفى كل منهما وأستغفر من انفصالى عن خدمته ، وخروجى من جنته ، فأما قصيدتى فمطلعها : —

تذكرت أيام الصبابة والصبا
وعيشا مليحا بالمليحة معجبا

وبعد مقدمة غزلية طويلة اعتذر عن مفارقته اياه وهو مريض ، فقال : —

بسوء اختيارى كان لى عنك مذهب
على أن قلبى لم يجد عنك مذهبا

ولولا أبى ما كان لى عنـــك مـرغب
وكيف أرى عن جنـــة الخلـد مرغبـــا

وكم لك لـولا سـوء بختى نعمـــة
مننت بهـــا لو شئت سميتهـــا أبا

وبعـــد أبى كم نعمـة منك نلتهـــا
فألفيتها أحلى وأهنـا وأعجبـــا

أبى لى أن أبقى السعيـــد بزعمهم
شـقاء أبى أن يسـعد المرء ان أبى

وقد وصلت تلك القصيدة القاضى الفاضل ، وأعجب بها ، ثم كتب الى ابنه القاضى الأشرف كتابا تعليقا على تلك القصيدة ، وهـذه الحادثة ، وقـد أورده ابن سناء فى النصوص جاء فيـه : « وأما اعتـذارك عن معلمك القـاضى السـعيد فى كونه فارقنى فأرقنى ، وأوحدنى فأوقدنى ، فهذه حجج ملفقة علمك اياها فانه يعلمك السحر ولكنه سحر البيان وما أحق أقواله أن توصـف بما وصف به ابن المعتز كتابته بأنها سحارة تحكم عقد اللسان ، وقـد عقد لسانى عن عتبه بالسحر من كتبه ، فانى لما قرأت كتابه ، وتأملت قصيدته التى اعتذر فيها عن فراقى ، وهربه منه ، وتركه اياى .. أشواقى آخذة بأطواقى ، كنت كلما قرأت فصلا أو بيتا تحللت عقدى فعلمت أن أقواله هى النفاثات فى العقد ، وأن من وجد ما وجد ما فقد منه ما فقد ، وما هرب الا خوفا أن يقضى على بالمحتوم وهو حاضر بحضرتى ، فينفر ويتجرع حسرتى دون أسرتى وهذا عذر استحى أن يقوله فقلتـــه عنه ، وخجل أن يجعله عـــذره فعذرته من عند نفسى منه ، ما عليه والله عتب ولا له ذنب ، ومن أين للوجه الجميل ذنوب ، ووددت لو كان البحترى حيا فكنا نلسعه من تلك القصيدة بحيه ، وكانت بائيته تغض من بأوها وعجبها ،

وتستتر من الأوراق فى حجبها ، وكنا نعلم أى الزينبين هى الخلوب وأيهما أحق بملك القلوب ، ولاشك أن الغالبة هى زينب الغـــالب وهو صاحبنا ، والمغلوبة هى زينب المغلوب (١) .

وقصيدة البحترى التى يعنيها الفاضل هى التى مطلعها :ـ

اجدك ما ينفك يسرى لزينبا   خيال اذا آب الصباح تأوبا

وفى سنة ٥٨٤ هـ رأى صلاح الدين أن تصحيح الأوضـــاع الاقتصادية فى مصر لن يتم الا بعلاج حاسم سريع فعول على القــاضى الفاضل وأمره بالسفر الى مصر ، فكتب الى ابن سناء يذكر تبريزه من دمشق عائدا الى مصر فقال ابن سناء قصيدة مطلعها :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجر   وحاشاك ثم من وجهها ضحك الثغر

ثم هنأه فيها بالقدوم من السفر :

هنيئاً لمصر أنها حلهــا الندى   وبشرى لمصر أنها جاءها البحر

هنيئا لها أن يسر الله يسرها   فلا عسر الا جاء من بعده يسر

وقـد جاء مصرا نيلها فى أوانه   فليست تبالى ضن أو سمح القطر

وعاد الى صدر الأقاليم قلبه   فعاش ولولا القلب لم يخلق الصدر

وقد أعد هذه القصيدة ليعرضها عليه اذا وصل ، ولكن الله قدر أن يتأخر ، فأرسل اليه هذه القصيدة مع كتاب يشرح قصتها(٢) وقد أعجب بها القاضى الفاضل أيما اعجاب ،وكتب : « مارأيت أغرب من مطلع تلك القصيدة ، ولا أدل منها على شطارة طبــع ولا من بيت الكأس المكسورة ، وهو يعنى قوله : ـ

---

(١) فصوص الفصول : خط .

(٢) « فصوص الفصول » :

وساحرة صانت سلافة جفنها بكأس به كسر وهذا هو السحر

ولا أدل منه على صـــــلابة نبع ، ولا من بيت الورق الخضر ، وهو يعنى قوله : —

فلا تنكروا منها الخضاب فانما
هى الغصن فى أطرافه الورق الخضر

ولا أدل منه على رقة طبع ، وشدة نزع ، ماهو الا مالك عنان الفضل فى عصره ، وواحـد كل دهره ، ولا أسمح بهذه المنقبة لدهره وما تغصصت الا بغيبه ابن المعتز عن أن يسمع كما تسمع ، فيقطع بفضله كما نقطع ، ويكف عن عدواء تشبيهه ، ويغص عن غلواء توجيهه ، ونوافقه على أنه اتكأ واتكل على ذى الرمة فأخذ فى طريقه مستأنساً برفقته ، فما ترك له تشبيها الا نقله وصقـله ، واستعمله واستنزله ٠٠٠٠٠ (١) »

وفى نهاية سنة ٥٨٤ هـ رحـل القاضى الفاضل الى مصر ، وبينما كان فى بيت المقدس ، وصلته قصيدة بائية يشير الشاعر فى مطلعها الى قصيدته الرائية السابقة :

رأت منك رائيتى ما تحب وبشرى لها أنها لم تخب

وقد أرسل مع هذه القصيدة كتابا هنأه فيه بالقـــدوم ، جاء فيه : « ولما علم المملوك بالاياب سارع الى عمل قصيدة للهناء بالقدوم وأملاها عليه بلسان الجذل اقتضابا ، وأذن له الفرح وقال صوابا وجعل القافية على باء ، وأراد تسـييرها لتلقى مولانا فى طريقهـا ، فوجدها مقيدة والمقيد أسير ، لايطيق المسير ، وتأسى بها المملوك لأنه يجب عليه أن يسعى الى أول البـلاد الشاميـة لتلقى مولانا ،

---

(١) فصوص الفصول : ١٣ ، ١٤ .

فكان هو أيضا مقيدا من الاحسان بقيوده ، لايطيق معها القعود ، فلما أبطأ ايابه سيرتها اليه ، وكتبت عليها كتاباجاء منه فى ذكرها :

« .. فلما وصلت القصيدة والكتاب أجاب الفاضل الى أبيه القاضي الرشيد : « وما أجدر هذه القصيدة أن تكون كأختها فى الهناء بالأمر غير الواقع وبالوصول الى مصر ، وبينه ما شاءت الأقدار من الموانع ، وبالجملة أن أهل هذه الصناعة ، وقفوا خلفا ، ووقف أماما وأتت السماء بهم دخانا ، وأتت به غماما ، وتأخروا وان تقدموا ، فقصروا وان سبقوا .. » (١)

فشهد له بالسبق على أقرانه ، والتقـــدم على نظرائه ، وأنهم وقفوا خلفا ، ووقف هو أماما الى غير ذلك .

وقد بقي الفاضـــل بمصر حتى نهاية سنة ٥٨٦ هـ ، ومن المحتمل جدا أن بعض القصائد التى لم تؤرخ فى الديوان تكون قد قدمت للفاضل فى هذين العامين .

وفى سنة ٥٩٢ هـ مات القاضى الرشيد والد الشاعر فتعرض بعد فقده لأزمات شديدة ، وضنك مرير حتى أحس انصراف الناس عنه ، وشماتة الحساد فيه ، وربما ترك وظيفته ، وصفرت يده ، وساءت حاله ، ولذا نراه فى القصيدة النونية التى مطلعها :ـ

جاءت بحسن مطمئن جاءتك منه بكل فن

يشـــكو اهمال القـــاضى الفـــاضل له ، وانصرافه عنه ، ثم يستصرخه ويتدنى ، ويسرف فى التدنى ، ويصرح بجوعه ، ويطلب رفده ونواله :ـ

ثقل الزمان على حتى م خف بين الناس وزنى

---

(١) نصوص الفصول : ١٦ ، ١٧ .

وسقيت منه مكارها حتى امتلأت وقلت قطنى
وأراه جار فكيف جا ر وأنت منه لم تجرنى
وانفل عزمى واستبيـ حت قلعتى وانهدركنى

ثم قال :

ومضى أب يحـــــنو على م فليت أمى لم تلدنى
وأراك لا تحنو وتشـــ بع حاسدى وتجيع بطنى
أفنى زمانى بالتشـــو ف والتشـــهى والتمنى

وقد نظم هذه القصيدة يوم فى عاشوراء : ـ

ونظمتها فى يوم عا شوراء من همى وحزنى

وفى هذه المناسبة يظهر موقفه كسنى على عكس ما لصق به من تهمة التشـيع ، فالشيعة يفرطون فى حزنهم فى هـذا اليوم فيلبسون السواد ، ويضربون صدورهم بالحجارة ، ويقيدون أيديهم بالأغلال والسلاسل ، أما السنيون فانهم يحزنون من غير مبالغة ولذا يقول : ـ

يوم يساء به وفيـ ه كل شيعى وسنى
ان لم أعز المسلميـ ين به فانى لا أهنى
أو كنت ممن لاينو ح به فانى لا أغنى

وفى قصيدة أخرى دالية بلغت الخمسة والستين بيتا ، نظمها بعد سنة ٥٩٢ هـ أى بعد موت والده أيضا يجأر بالشكوى والاستغاثة بالقاضى الفاضل ، ويضيق باهماله له : ـ

وقل من يفقد الرشيد أبا برا فيلقى من أمره رشدا

قد كان لى والد وكان من الـ ... ـطاعة والبر بى يرى ولدا
وكان بى جنة النعيم فما ... بالى رأيت النعيم قد نفدا

ثم غالى فى مدح القاضى الفاضل فجعله قد استعبد الخلق بنواله ولولا خوفه لعبدوه ، والملوك تفد الى بابه ، ورأيه سديد الى غير ذلك من الصفات التى تعود أن يخلعها عليه ، ثم صرح بأنه جرد من منصبه : —

أصبحت لا منصبا ولا أملا ... فيه ولا نعمة ولا حسدا
لا مسعدا لى على الزمان ولا ... سعدا ولا عاضدا ولا عضدا
كسدت فيه وليس ذا عجبا ... منه فمثلى فى مثله كسدا
وظف غيرى وما لحقت به ... لا يستوى الأشقياء والسعدا
وكان لى والد وكان به ... عيشى من بعد أن غدا رغدا
واننى ما يئست من أملى ... ان لم يجى اليوم منك جاء غدا

والظاهر أن هذه الفترة كانت عصيبة حتى على القاضى الفاضل نفسه ، فلم يكن مستريح النفس للأوضاع القائمة بعد موت « صلاح الدين » وربما يكون هذا هو السر فى تلك الجفوة التى نوه عنها الشاعر ، غير أن هذه الجفوة سرعان ما انطفأ أثرها وزالت شواهدها لأن الشاعر لم يظهر تلك الجفوة ، وهذا الاهمال فى آخر قصيدة وجهها الى القاضى الفاضل قبل وفاته بثلاثة شهور، ومطلعها : —

شربت شرب الهيم ... من فم ذاك الريم

وقد مدحه وهنأه بعيد النحر ، وذكر فضله وانعامه عليه

قد أثقلت ظهرى وقد ... دت بالحياة أديمى

أقل ما يوليه تبـ جيلى مع تعظيمى

وكان الشاعر قد أهداه كتابه دار الطراز ، فأثنى عليه ورفع قدره ، وقد أشار الشاعر الى ذلك حين قال :

ومنك تعليمى وما علمت مع تفهيمى
وعمرت دار الطرا ز منك بالرقوم
كذا موشحاتى صر ن منك كالعظيم

وهنأه بالعيد : ـ

واهنا بعيد قادم بأسعد القدوم
أتاك بالتكميل للـ آمال والتتميم

وظل ابن سناء وفيا لأستاذه طيلة حياته ، غير أن القاضى الفاضل قد اعتزل الحياة السياسية بعد موت « صلاح الدين » لما رأى إختلال الأحوال ، وتفرق الكلمة وقد وافته منيته سحر يوم الثلاثاء أو الأربعاء سنة ٥٩٦ هـ (١) ولم نعثر على قصيدة فى رثاء القاضى الفاضل لابن سناء ، اما لأنه قالها وخشى اذاعتها من ابن شكر الذى كان وزيرا وكان شديد العداوة للقاضى الفاضل ، أو لأنها فقدت . وقد ذكر الدكتور أحمد أحمد بدوى أبياتا لابن سناء على أنها فى رثاء القاضى الفاضل وهى :

عبد الرحيم على البرية رحمة أمنت بصحبتها حلول عقابها (٢)

ولكن الصحيح أن هذه الأبيات من قصيدة فى المدح مطلعها : ـ

فرقت بين بنانها وخضابها وجمعت بين سلافها ورضابها

وقد هنأه فيها بعيد الفطر .

---

(١) القاضي الفاضل : الدكتور أحمد أحمد بدوى : ٣٣ .

(٢) القاضى الفاضل ص ٣٤ للدكور أحمد أحمد بدوى .

علاقته بالوزراء والأمراء :

وكان لصلة القاضى الفاضل بصلاح الدين وحاشيته ، وبالبيت الأيوبى كله ، ولثقة صلاح الدين الزائدة به ، كان لهذا أثر بارز فى تطلع ابن سناء الى الاتصال بالأمراء والوزراء ورجال الحاشية ، وقد ساعدته شاعريته على الاتصال بهم ، فمدح من السلاطين : « صلاح الدين » وأولاده العزيز والأفضل ، وأخاه الملك العادل ، كما مدح من الوزراء « ابن شكر » على الرغم مما كان بينه وبين القاضى الفاضل من عداء كما توطدت علاقته بالملك المظفر تقى الدين فمدحه بكثير من القصائد وأشاد بعزيمته فى الغزو والجهاد ، كما مدح الملك الظاهر غازى والملك المعظم شمس الدولة تورانشاه .

وقد توطدت علاقته ببعض هؤلاء الوزراء والأمراء فأحبوه وصادقوه ، وكانت علاقته بالأفضل ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى وطيدة حتى أنه عندما كان ابن سناء مارا بعكا أرسل اليه الأفضل رسولا خاصا يستدعيه اليه فى دمشق ونفحه بالهدايا السنية . ويبدو أن ابن سناء اعتذر وسافر الى مصر ولكنه مدحه بقصيدة مطلعها : —

قمر بات بين سحرى ونحرى وخيول الدموع باللثم تجرى

وفيها يقول : —

وفدى منزلا ذا النيل فرداً كل ربع لآل مية قفر
كلفى قط لم يسافر وما خف ركاب الغرام الا لمصر

ثم يقول : —

جل مقدار ذكره لى على البعد لقد جل فى البرية قدرى
واقتضى الأمر منه شعرى فأر سلت اليه بمقتضى الأمر شعرى

كما توطدت صلته بالعزيز ، فأشاد بجهاده وبطولته فى فتح « تبنين » على الرغم من العدد العديد الذى كان يحيط بها ، ويدافع عنها ، حتى سدوا كل طريق موصل اليها وفى ذلك يقول : —

الشام للاسـلام دار القرار — وكان من قبـل طريق الفرار

وفيها يقول : —

جئت لتبنـين ومن حولهـا — قوم كأعـداد الحصى للحصار
سدوا عليهـا الطرق حتى لقد — كادوا يسدون طريق القطـار

كما توطدت صلته بالملك الكامل ابن الملك العادل حتى ولاه ديوان الجيش والاشراف عليه ، ولكن ابن سناء اعتذر عن ذلك اعتذارا رفيقا ورأى أنه لايصلح لمثل ذلك ولهذا قال : —

قـد عجز المملوك عن خدمة — ثيـابه فى مثلهـا طيش
للجيش ديـوان ومالى بـه — أنس ولا عنـدى له عيش
وصرت مهزوما فـلا تعجبوا — من واحـد يهـزمه الجيش

وقد استطاع ابن سناء أن ينفذ الى قلب « ابن شكر » حتى حصل على خلع عديدة من الملك العادل عن طريق وزيره ابن شكر، كما حصل على هدايا ابن شكر نفسه ، وقد أهداه ابن شكر بغلا يسمى الجمل ، وقد صرح بذلك فى احدى قصائده اذ يقول : —

حملتنى فوق مركوب قوائمـه — كالسيل معأنها قدت من الجبل
تمثال حسن بـلا مثل يماثله — فى الحسن لكنه فى السير كالمثل
علوت منه على الأفـلاك أورده — نهر المجرة بين القوس والحمل
وياؤه حـذفت من اسمه غلطا — فهو الجميل وان سموه بالجمل

وهكذا كان ابن سناء ينفذ الى قلوب الوزراء والأمراء ، فيحملون له الود والحب والاكبار ، ويبدو أن شخصيته الى جوار شاعريته كانا عدته النفسية التى حقق بهما تلك الصلات الوطيدة

المناصب التى وليها :

لقد كان القاضى الفاضل صاحب اليد الطولى فى كل ماوصل اليه ابن سناء من مجد ، وما أسند اليه من وظائف ، فقد عينه كاتبا بديوان الانشاء ، ولقد كانت قصائد « ابن سناء » تصل الى القاضى الفاضل تباعا وهو فى الشام ، وكان القاضى الفاضل يعجب بها ، ويذيعها ويشيد بمحاسنها فى أوساط الشعراء ، وقد دفعه فرط اعجابه به الى أن يستقدمه الى « دمشق » ليكون كاتم سره فى ديوان الانشاء ولكنه لم يبق طويلا فى الشام اذ آثر العودة الى مصر لشدة تعلقه بها وفرط حنينه اليها ، وربما ورث هذا الميل وذاك الحنين من أستاذه القاضى الفاضل الذى كان يقول: وأما أحوالى فاننى لم أزل ملتاثا منذ دخلت دمشق لتغير مائها وهوائها ، وأبنيتها وأبنائها وأوديتها وأدوائها ، وقراها وقرنائها، ومن لى بمصر فاننى أقنع بما تنبته أرضها من بقلها وقثائها ، وأبيع بردى وما عساه بشربة من مائها وأمتطى متن السيف فى هجر سوادها وسودائها .. (١) »

وفى سنة ٥٧٢ هـ تحققت رغبة ابن سناء فى العودة الى مصر لأن « صلاح الدين » قد قرر مغادرة سوريا مصحوبا بموظفيه فعاد ابن سناء معهم . وقد قرر الصفدى أنه كان يتقاضى راتبه سواء أحضر الى الوظيفة أم لم يحضر ، ولما رحل القاضى الفاضل

---

(١) الروضتين : جـ ٢ : ص ٥٨ .

مرة أخرى الى دمشق فى صحبة « صلاح الدين » لم يرحل معه «ابن سناء» بل بقي فى مصر وكيلا عن القاضى الفاضل يرعى ولاياته الواسعة وهى وظيفة لا تسند الا الى كفء موثوق فيه · وقد ظل ابن سناء في هذا المنصب الهائل حتى وفاة القاضى الفاضل سنة ٥٩٦ هـ · ومن قصائده التى مدح بها القاضى الفاضل وصلاح الدين فى هذه الفترة نرى أن حالته قد تحسنت فى هذه الوظيفة ·

ولما وافى الأجل المحتوم سيده القاضى الفاضل ، ووصل ابن شكر الى مرتبة الوزارة ، وهو العدو الألد للقاضى الفاضل لم يجد ابن سناء غضاضه فى مدحه ، والتقرب اليه حتى حظى بهداياه وصلاته – كما أسلفت – وبقيت صلته قوية بالحاشية والسلاطين حتى ولاه الملك الكامل ابن الملك العادل المسئولية الكاملة عن ديوان الجيش سنة ٦٠٦ هـ ، ولكنه لم يجد هذا المنصب مناسبا لطبيعته فرفض هذه الوظيفة فى أدب جم · وهذه كانت آخر ما ولى ابن سناء من وظائف ·

مجالسه ومنادماته :

لم تشغل الحروب الصليبية الخلفاء والوزراء عن الشعراء والأدباء فقربوهم الى مجالسهم ، واستمعوا الى قصائدهم التى ألهبت مشاعرهم وأذكت حماستهم وعواطفهم ، فتمسكوا بالنصر ، ونعموا بلذة الجهاد ، ونشوة المدح ·

فكان الخلفاء والأمراء والوزراء لا ينسون أنفسهم يوم أن تضع الحرب أوزارها، ويخمد أوارها فيعقدون الندوات، ويستمعون فيها الى النوادر والفكاهات أو يطربون بتغريد احدى المغنيات ، أو يتبارون مع الشعراء فى مدارسة الشعر ونقده · وكان لبعض هؤلاء الخلفاء ميل فطرى الى الشعر حتى أن بعضهم كان يجيد قرضه ، وانشاده ،

فلقد كان الملك الأفضل ابن صلاح الدين شاعرا وذكر «ابن خلكان» أن تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الأصغر كان شاعرا ، وترك ديوانا من الشعر ، وكذلك اشتهر الملك الكامل ابن الملك العادل ، وأخوه المعظم عيسى كان يصدر فى الشعر عن طبيعة سهلة حتى عرف بذلك بين الشعراء ، وكان الشعراء اذا لم يتكلف أحدهم فى قرض الشعر وصفوه « بأنه يفعل فعلا معظميا » واشتهر كذلك المنصور بن المظفر عمر بن شاهنشاه والى «حماه» بالشعر ، ووضع كتبا فى الشعر منها «طبقات الشعراء»٠وكان ابراهيم بن فروخشاه والى «بعبلك» شاعرا أديبا حتى قيل انه أشعر بنى أيوب ، وله ديوان شعر ٠

وقد اشتهر « صلاح الدين » ونور الدين محمود بميلهما الى الأدب ، وتقريبهما الشعراء ، واستماعهما القصائد التى تسجل انتصارهما ، وتخلد مآثرهما ، وكان كل منهما لا يضن على الشعراء بالمال والعطاء ، وكثيرا ما استدعى «صلاح الدين» بعض مقربيه ليقرأ له فى ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان «ابن منقذ» الشاعر الشامى المعاصر من أفضل الدواوين اليه ، وكثيرا ما ردد فى مجالسه قول أبى المنصور « محمد بن الحسن الحميرى » :ـ

وزارني طيف من أهوى على حذر
من الوشاة ونور الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حولى به فرحا
وكان يهتك ستر الحب بى شغفا

ثم انتبهت وآمالى تخيل لى
نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول ابن المنجم : ـ

وما خضب الناس البياض لقبحه
وأقبح منه حين يظهر ناصله

ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازله

فكان اذا قال : « ولكنه مات الشباب » يمسك بكريمته (يريد لحيته) وينظر اليها ويقول : «اى والله مات الشباب»(١)

وقد قضى الملك الكامل ابن الملك العادل أربعين سنة فى حكم مصر ، دأب فيها على تشجيع العلماء والأدباء ، ورويت عنه آخبار أعادت الى الأذهان سيرة «هارون الرشيد» فقد كانت تبيت عنده فى القلعة فى كل ليلة جماعة من أهل العلم ، فينتصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه ، فنفقت العلوم والآداب عنده ، وقصده أرباب الفضائل ، ونوادره الادبية أكثر من أن تحصى . منها على سبيل المثال أنه كان فى ليلة من الليالى جالسا فدخل عليه شاعر من الشعراء اسمه «المظفر» فقال له الكامل : «أجز يا مظفر» :ــ

« قد بلغ الشوق منتهاه
قال مظفر : « وما درى العاذلون ماهو »
قال الكامل : « ولى حبيب رأى هوانى »
قال مظفر : « وما تغيرت عن هواه »
قال الكامل : « رياضة النفس فى احتمال »
قال مظفر : « وروضة الحسن من حلاه »
قال الكامل : « أسمر لدن القوام ألمى »
قال مظفر : « يعشقه كل من يراه »
قال الكامل : « وريقه كله مدام »
قال مظفر : « ختامها المسك من لماه »

---

(١) الادب المصرى من قيام الدولة الايوبية ٥٨ ، ٥٩ .

قال الكامل : « ليلته كلها رقاد »

قال مظفر : « وليلتى كلها انتباه »

قال الكامل : « وما يرى أن أكون عبدا »

فقام مظفر على قدميه وقال : « بالملك الكامل احتماه »

العـــالم العـــامل الذى في كل صـــلاتنا نراه

ليث وغيث وبدرتـــم ومنصب جل مرتقاه (١)

وقد تأثر ابن سناء الملك بما كان جاريا فى هذا العصر بل ان داره كانت ملتقى الادباء والشعراء ، وكانت له مجالس تجرى فيها المحاورات والمفاكهات التى يروق سماعها ، وكانت داره احـــدى المنتديات التى جمعت أسباب الترف واللهو ، وجمعت بين ما يلذ القلب والعين ويمتع النفس والخاطر ، ففيها الزهور والبساتين التى تزرى بأية روضة على حد قوله : ــ

لقد قصرت عن شأوها كل روضـــة

وقصر عن أملاكها كل أفضـــل

وأنسى بهـــا بين الورى ذكر جه

فر الرشـــيد فأنى جعفر المتوكل

وبها تماثيل مصورة ينساب منها الماء ، فكم من طائر ينبعث الماء من رأسه ، وأسد يشب الماء من فمه :

وكم طائر من رأسه الماء طـــائر

على أنه في وكـــره كالمكبـــل

---

(١) الادب المصرى من قيام الدولة الايوبية : ٦٤ .

وكم أسد والماء من فيـــه واثب
وان كان لم ينهـــض ولم يتحلحل

ولو رآها كسرى وقيصر لضرب كل منهما كفـــا على كف ، ولفغرفاه وجحظت عيناه : —

يقـابل كسرى قيصرا وكلاهمــــا
يقلب طرف البـــاهت المتـــأمل

فكسرى يرى الايوان كسرا وقيصر
يرى القصر خص الناســك المتبتــل

ويجد العشاق متعتهم فى أبهاء تلك الدار ، فقد صور فيهــا مناظر العشاق الذين يرون العشق فرضا منزلا على حد قوله : —

وصور فى أرجائها كل عاشـــق
يرى العشق فرضا فى الكتاب المنزل

جميل بثين مع كثير عـــزة
يصوغـــان أشعار الهوى والتغـزل

وله فى وسطها منظرة تطل على النيل كأنها الزهرة اللامعـة المتألقة وكأنها جمعت بين حسن الدنيا وجمال الآخرة :

أنظر الى المنظـــرة النـــاضرة
تزهـــر مثل الزهـــرة الزاهـــرة

أحسن مـــا فى حسنها أنهـــا الد
نيا وما ألهت عن الآخـرة

فى هذه الدار وفى غيرها (فى القاهرة) كان يلتقى بأصدقائه وأحبابه ، وبالشعراء والنقاد فيناقشون مسائل الادب حينـــا ،

ويعبثون حينا ، ويحتد بعضهم على بعض فى المناقشة حينا آخر ، وكان يدعو أصدقاءه الى مجلسه ، ويهددهم بالهجاء ان لم يجيبوا دعوته ، وهذه احدى رسائله الى أحد أصدقائه : —

حضر الحبيب وأنت أشـ هى للفؤاد من الحبيب

فلئن حضرت مسارعا
فلأصفحن عن الذنوب

ولأمدحنك بالفتو
ة فى الحضور وفى المغيب

ولئن قعدت لأهجون
ك فى البعيد وفى القريب

وأقول هذا فى النها
ر قد استرحنا من رقيب

ويرسل الى صديق آخر يستدعيه فيقول له : —

تهت عنا مذ تهت عجبا علينا
يا كثير الخطا قليل الاصابه

نحن فى دعوة فان غبت عنا
رجعت دعوة عليك مجابه

وقد حدثوا أن ابن سناء بلغه أن « هبة الله بن مقلد الكاتب » قد هجاه فأرسل اليه من أحضره ، وأدبه ، وشتمه ، فكتب اليه تشمو الملك المعروف « بابن المنجم » الشاعر :

قل للسعيد أدام الله نعمته
صديقنا ابن وزير كيف تظلمه

صفعته اذ غدا يهجوك منتقما
فكيف من بعد هذا ظلت تشتمه

هجو بهجو وهذا الصفح فيه ربا
والشرع ما يقتضيه بل يحرمه

فان تقل ما لهجو عنده ألم
فالصفح والله أيضا ليس يؤلمه

وجاء فيما كتبه الصفدى عن ابن سناء أنه حضر اجتماعات الشيخ أبى المحاسن البهنسى اللغوى أبى الوزير البهنسى الذىأصبح وزيرا للأشرف بن العادل ، وكان ابن سناء ذكيا ذا عقل ناضجيفهم ما يقال بسرعة ، وفى هذه الاجتماعات اتصل برجل مغربى تعود أن يشغل نفسه بتأليف الموشحات المغربية بالاضافة الى الأزجال ، فاتصل به ابن سناء ،وناقشه فى الموشحات حتى أصبح فيها خبيرا، بل انها تقدمت على يديه أكثر مما تقدمت على يد المغاربة أنفسهم ، غير أن ابن خلكان وياقوت لم يشر أحدهما الى هذه الحادثة . وقد ادعى ابن سناء فى كتابه « دار الطراز » أنه اعتمد على نفسه اعتمادا كليا فى معرفة الموشحات واستنباط قواعدها ، ونهجها الذى تسير عليه .

وقد مر ابن « عنين (١) الشاعر الدمشقى بالقاهرة فاستهوته مجالسها ، وطابتاقامته بها فترة من الزمن ، انهالت عليهالدعوات من الأدباء والشعراء ، واجتمعوا معه على أرغد عيش ، وكانوايقولون هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم ، وبخاصة مع ابن سناء الملك .

أخلاقه : اذا كان لنا أن نستخلص طرفا من أخلاق ابن سناء فاننا نجد أنفسنا أمام مصدرين رئيسيين ، وفى نظرى أن كلا منهما

---

(١) ابن عنين : ولد فى سنة ٥٤٩ هـ ـ ١١٥٤ م وتوفى سنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م وله ديوان نشره خليل مردم بك بدمشق .

يعطى صورة تختلف عن الصورة الأخرى فأما المصدر الأول فهـــو ظروف نشأته ، وانحداره من أصل جمع بين الغنى والجاه ،والثقافة والأدب ، وكذلك صلته بالقاضى الفاضل ، وهو الوقور الجاد ، والوزير الخطير ، وكذلك ما كتبه عنه الادباء والمؤرخون • أقول : ان هذا المصدر لو اعتمدنا عليه فانه يضفى على شاعرنا صفات عظيمة كالاعتدال والورع ، والتقوى ، والشموخ ، والاعتداد بالنفس • أما المصدر الثانى فهو ديوانه وشعره ، واذا اعتمدنا عليه فاننـــا نلمس منه صورة تختلف عن الصورة الســـابقة فأكثر من نصف الديوان للمدائح ، ومعظم هذه المدائح يشتمل على مبالغات غـــير مقبولة فهو يصل بممدوحه حد الألوهية فالدهر لو أخطأ فان هيبة عبد الرحيم البيسانى (القاضى الفاضل) تؤدبه وتقيم عليه الحد وبذا يقسم ابن سناء : —

ويمينا لو عربد الدهـــر ســـكرا
لأقيمت منها عليـــه الحـــدود

ويرى أن الدهر خادم وأن القاضى الفاضل سيده :

وما الدهر الا خادم أنت ربـــه
وما الخلق الا عالم أنت فاضله

ويرى أن القدر لا يستطيع أن ينقض ما أبرمه الممدوح :

فلا يقدر المقـــدار ينقض مـــا قضى
ولا يستطيع الدهر يهـــدم ما بنى

ويعيد هذا المعنى نفسه فى مدائحه لصلاح الدين : —

فما يبرم المقـــدار ما كنت ناقضا
وما ينقض المقـــدار ما كنت مبرما

وفى مدح الملك العزيز يرى أنه هـــو الذى ينظم أمور الكون ولولاه لا نفرط هذا النظام :

لولاك تنظم عقـــد هذا الدهر لا نحل النظـــام

بل انه ليعترف هو على نفسه بأنه كاذب فى مدائحه ، صادق فى أهاجيه : ـ

كآبة الكذب فى مـــديحى ورونق الصـــدق فى هجائى

فماذا نستخلص من وراء هذه المبالغات ؟ لقد جرى فى ذلك مجرى شعراء عصره الذين غلبت عليهم المبالغة ، وتجاوزوا حدود الصدق الفنى فوصل بهم ذلك الى حد الكذب والنفاق ٠٠ هـــذا اذا تجاوزنا نظرة الدين وأنه بهذه الصفات الخارجة عن حـــد المألوف ، والتى لا يوصف بها غير الله ـ خارج عن حدود الدين ٠

وقد اشتمل ديوانه على كثير من الخلاعة والمجون والاستهتار وبمراجعة أشعاره فى المجون نرى أن القلم يعف عن ذكرها والتعرض لها ، فكثيرا ما صرح بتجاربه مع غلمان ، وجوار وصرح بأعضـــاء التذكير وبأعضاء التأنيث من غير مبالاة ولا اهتمام ٠

ولكن الحقيقة تعلن أن كثيرا من الشعراء فى هذا العصر حتى الشعراء المتصوفين كانوا يتجهون هذا الاتجاه اذ أن حياة الحرب والحرمان الجنسى ، وكثرة سبى الحروب الصليبية ، وغلمان الأتراك قد جعلت الغزل بالمذكر شرعة لدى الشعراء حتى أن الشـــاعر الذى يعف عن ذلك كان لا يقرأ شعره ولا يهتـــم به حتى ليصرح بذلك عمر بن الوردى :

أستغفر الله من شعر تقـــدم لى
في المرد قصدى به ترويج أشعارى (١)

ويقول فى موضع آخر :

ما المرد أكبـــر همى ولا نهـــاية علمى
ولست من قـــوم لوط حاشـــا تقاى وحلمى
وانما خرج دهـــرى كذا ففتقت شـــعرى

وبالغ ابن سناء فى فخره ، واعتداده بنفسه ، فهو يحتقـر الناس جميعا ، ولا يأبه بهم ، ويرى الزمان عبدا وهو سيده :

وفرط احتقـــارى للأنام لأننى
أرى كل عار من حلى سؤددى سدى

وانك عبدى يا زمـــان واننى
على الكره منى أن أرى لك ســـيدا

ولو علمت زهر النجوم مكانتى
لخرت جميعا نحو وجهى ســـجدا

أرى الخـــلق دونى اذ أرانى فوقـــهم
ذكاء وعلمـــا واعتلاء وســـؤددا

مذهبه الدينى :

وفى هذا المقام ينبغى أن نتعرض لمذهبه الدينى ، اذأن هذه المسألة كانت هامة فى ذلك الوقت لأن بعض الشعراء كانوا ما زالوا يؤمنون بالعقيدة الفاطمية ويظهر أثرها فى شعرهم ، ومثل هؤلاء

---

(١) ديوان ابن الوردى طبعة مجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤ .

كانوا محاطين برقابة الدولة ، وبعض آخر كان يظهر فى شعرهم أثر العقيدة الفاطمية دون وعى منهم لذلك ، وهؤلاء كثرة من الشعراء ومنهم ابن سناء الملك ولقد اتهم ابن سناء بالتشيع ، فقد قرر ابن سعيد فى كتابه « الاغتباط » أنه كان مغاليا فى التشيع (١) وأيد الصفدى ما ذهب اليه ابن سعيد بأبيات قالها ابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ اتهم فيها ابن سناء بأنه كان يكره أم المؤمنين عائشة زوج النبى ، ولم يكن يحب أباها ، ولذا نال ما يستحق وسقط من فوق البغل الذى أهداه اليه « ابن شكر » ، والذى كان يسمى بالجمل .

ولا نستطيع أن نمر على مثل هذا الاتهام دون أن نناقشه لنكشف عن وجه الحق فيه .

١ ـ فنحن نعرف أن ابن سناء تلقى علوم الحديث عن السلفى، وكان السلفى سنيا شافعى المذهب ، وكان ابن سناء يحترمه ويحبه حتى خصه ببعض مدائحه بطريقة لا يقبلها الشيعى ، فقد خاطبه صراحة بأنه أمام الاسلام ، وأحسن مرشد لشريعة النبى عليه السلام وهذه صفات يتردد الشيعى فى ذكرها ، استمع اليه يقول :

فجئت الى الاسكندرية قاصدا
الى كعبة الاسلام أو علم العلم

الى خير دين عنده خير مرشد
وخير امام عنده خير مؤتم

الى أحمد المحيى شريعة أحمد
فلا عدمت منه أبا أمة الأمى

---

(١) الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط جـ ٢ : ٢٩٣ .

اذا ما شياطين الضـــلال تمـردت
جدالا فمن أقواله كوكب الرجم

أتيت لـــه مســـتشفعا بدعـــائه
يقيل به جرمى ويشـــفع فى اثمى

٢ ــ لم يذكر المؤرخون المنصفون من أمثـال « ابن خلـكان » و « ياقوت » و « أبى الفداء » ما يشير الى عقيدة الشـاعر وأنه كان شيعيا .

٣ ــ من تتبعنا لـكتب ابن سناء لم نعثر على ما يؤيد ذلك من قريب ولا من بعيد ، بل على العكس من ذلك وجدنا ما يؤكد أنه كان سنياً ، ففى مقدمة كتابه « فصوص الفصول » يمدح صحابة النبى عليه السلام المهاجرين منهم والأنصار دون أدنى تحفظ ، وأكثر من من هذا لا يوجد أى ذكر لعلى أو للأئمـــة الآخرين من بيته ، ومن الطبيعى أن لا يمدح الشيعى أصحاب النبى ثم يهمل ذكر على والأئمة الآخرين فهاهو ذا يقول : « وصلى الله على السيد الأجل ، النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، ويخرج المؤمنين من ظلل الكفر وظلماته ، محمد وآله وأصحابه الـذين هـــاجروا وهجروا ، وآووا ونصروا ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أظهره الله بهم على الدين كله ، وجمع لهم به الخير أجمعه » (١) .

٤ ــ فى مدحه الملك المظفر « شاهنشاه » يقرنه فى أدب جم ، واحترام زائد بسميه عمر بن الخطاب الخليفة الثـانى ، ويراه مترسما نهجه ، ومعيداً فى الناس سيرته :

وسـيرك فينـــا سـيرة عمـرية
فروحت من قلب وفرجت من كرب

---

(١) فصوص الفصول : المقدمة .

وردك فينا من سميك سنة
فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب (١)

٥ ـ وحين يهجو ابن عثمان يقول :

على وعثان أبوه وجده
على قوله ـ حاشا علياً وعثماناً

فان سرقوا اسما الكرام فربما
رأينا يهوديا يسمى سليمانا

فالشيعى لا يقرن علياً بعثمان ، اذ يرى علياً هو الخليفة وحده ، وغيره من الخلفاء معتدون ·

٦ ـ وفى مدائحه للقاضى الفاضل ينفى عن نفسه التشيع نفيا صريحا فيرى أنه فى حبه للقاضى الفاضل يجمع بين صفة التشيع من ناحية الحب العارم للممدوح ، وبين صفة السنية من حيث مذهبه الدينى فيقول : ـ

أصبحت فى مدح الأجل موحدا — ولكم أتتنى من أياديه ثنى
وغدوت من حبى له متشيعا — يا من رأى متشيعا متسننا

وفى قصيدة أخرى يقول : ـ

تشيع الخلق مثلى فى محبته — اذ كان قائم جود غير منتظر

وهو شيعى فقط فى حبه الزائد واخلاصه للقاضى الفاضل ، وفى البيت اشارة الى القائم عند الامامية وهو المهدى المنتظر الذى ينتظر الشيعة عودته ·

---

(١) راجع الديوان ·

٧ ـ وفى قصيدة نونية أخرى يمدح بها القاضى الفاضل يشير الى يوم عاشوراء ، وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين ، والشيعة يلبسون فيه السواد ، وينتحبون ويضربون أنفسهم بالسلاسل الحديدية حتى تسيل منهم الدماء ، ومازالوا يفعلون كذلك فى العراق وخاصة فى كربلاء والنجف موضع قبر علي والحسين ، وهو فى هذه القصيدة ينفى عن نفسه أنه شيعى ، وأن أوضح أنه يوم يشارك فيه الشيعى السنى حزنه فيقول : ـ

ونظمتها فى يوم عا شوراء من همى وحزنى
يوم يناسب غبن من قتلوه ظلما مثل غبنى
يوم يساء به وفيه كل شيعى وسنى
ان لم أعز المسلمين به فانى لا أغنى
قتل الحسين بكل ضرب للبغاة وكل طعن

وهذا هو رأى السنى فى يوم عاشوراء ..

٨ ـ وثمة حقيقة أخرى ننهى بها هذا الموضوع وهى أن صلاح الدين كان يأخذ بالشبهة من يلوح عليه أنه متشيع ولو كان سنيا ، فقد قضى على « عمارة اليمنى » لممالأته أهل الشيعة على الرغم من أنه سنى ... بينما حظى ابن سناء بكثير من خلع الشرف من « صلاح الدين » وخلفائه فى مصر . ومن ثم نؤكد أن ابن سناء كان سنيا ، وأن كل ما قيل عنه رجم من حاقد أو ناقم ، أو ساع له بشر أو مدبر له كيدا ، أو غافل عن الحقيقة .

آثاره العلمية :

لقد ترك ابن سناء بعض الآثار الأدبية التى مازالت تعيش بيننا حتى اليوم ولم يتح لها أن ترى النور نذكر منها : ـ

١ ـ روح الحيـــوان : لخص فيه الشـــاعر كتاب الحيـــوان للجاحظ (١) ، وكان الشـــاعر مولعا بمذهب الجاحظ فى الكتابة ومعجبا به ، ولذا درس بعض كتبه دراسة دقيقة ، حتى أخذ على عاتقه تلخيص كتاب الحيوان واحتفظ منه بنسخة خطية دون عليها الجاحظ بعض ملاحظاته بخط يده · وقد أشار ابن سناء فى احدى الرسائل التى بعث بها الى القاضى الفاضل الى تأثير الجاحظ فى الكتاب الذين أتوا بعده ، مثل ابن العميد ، وأبى حيان التوحيدى ، والوزير أبى القاسم المغربى · وقد سر القاضى الفاضل من اتجاه الشاعر ، وأغراه أن يستمر فى دراسة مؤلفاته الأخرى كالبيان والتبيين (٢) ·

٢ ـ مختارات من شعر ابن رشيق القيروانى :

من احدى الرسائل التى بعث بها ابن سناء الى القاضى الفاضل نعرف أنه جمع مختارات من شعر ابن رشيق أعجب بها ثم أرســلها الى أستاذه مع مذكرة نقدية ، ويبدو أن القاضى الفاضل قد أعجب بتلك المحاولات ورآها ذات أثر بالغ فى تكوينه ككاتب فى ديوان الانشاء فأشار عليه أن يجمع مختارات من شــعر ابن الرومى ، ويظهر من الرسائل المتبادلة بينهما أن هذا العمل لم يتم ·

٣ ـ دار الطراز : فى فن الموشحات :

وهو من أعظم آثار الشاعر الأدبية ، وقد حققه الدكتور جودة الركابى وجعله موضوعا لرسالته التى نال بها الدكتوراه ، وهــو لا يزيد عن مائة وخمسين صفحة ، وقد قســـمه الشـــاعر ثلاثة أقسام : ـ

---

(١) معجم الادباء جـ ٩ : ٢٦٥ ، وفيات الاعيان : جـ ٢ : ٢٨ ·

(٢) فصوص الفصول ·

القسم الأول : مقدمة طويلة تحدث فيها عن فن الموشحات ، وقوانينه ، وعرفنا طريقة كتابته ، وناقش تفصيلا أشكال الموشحات المختلفة ، وضرب لها الأمثلة من موشحات مغربية .

والقسم الثانى : يستعرض فيه الموشحات الغربية التى استمد منها أمثلته فى المقدمة .

والقسم الثالث : موشحات ابتكرها وصاغها بنفسه . ويعد ابن سناء قمة شعراء المشرق فى كتابة الموشحات ، بل شهرته فى الموشحات تفوق شهرته فى الشعر (١) كما ادعى الدكتور جودة الركابى .

٤ ـ مساعد الشوارد : وهو أحد كتبه التى لم نعثر عليها ، وانما علمنا ذلك من احدى رسائله الى القاضى الفاضل ـ وهى رسالته التى تحدث فيها عن عيونه الملتهبة ، وعن مرضه الخطير ، وقد ذكر أن هذا الكتاب بأكمله جاء ضمن كتابه المسمى : مساعد الشوارد ، كما وردت الاشارة اليه فى قائمة كتبه التى ذكرها الصفدى .

٥ ـ فصوص الفصول وعقود العقول : وقد قسمه قسمين : القسم الأول منه يحتوى على خطابات المؤلف التى كتبها الى القاضى الفاضل ، وردود القاضى الفاضل عليها . والقسم الثانى يحتوى على الخطابات التى كتبها الفاضل عن الشاعر الى والده القاضى الرشيد ، والى ابنه القاضى الأشرف . وهذا الكتاب ذو أهمية بالغة فى دراسة شعر الشاعر اذ أنه ينير الطريق عن بعض قصائد الديوان ومناسباتها ، والملاحظات النقدية التى أبداها القاضى الفاضل .

---

(١) دار الطراز ، تحقيق جودة الركابى .

٦ ـ ديوان شعره :

وهو ديوان ضخم يحوى أكثر من ثمانية آلاف بيت من الشعر، مدح فيه القاضى الفاضل وصلاح الدين الأيوبى ، وأبناءه من بعده ، ويستطيع الباحث فى الديوان أن يتعرف على كثير من حوادث العصر وما قام به صلاح الدين الأيوبى وأبناء البيت الأيوبى الذين مدحهم من بطولات رائعة فى صد الصليبيين وهزيمتهم • وقد قمت بتحقيق هذا الديوان •

وفاته :

وقد وافاه أجله فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ٦٠٨هـ ودفن بالقاهرة (١) • ولم يتعرض ابن الأثير الى تأريخ وفاته فى هذه السنة •

وقد ذكر صاحب الكمال فى عقود الجمان أنه توفى يوم الأربعاء رابع شهر رمضان سنة ٦٠٨ هـ ، وذكر العماد الكاتب فى الخريدة ما يأتى : « ••• توفى والده جعفر فى منتصف شهر رمضان سنة ٥٨٠ هـ وقرر أنه رأى بخط بعض أصحابه أن الشاعر قد توفى يوم الثلاثاء ٥ من ذى الحجة سنة ٥٩٢ هـ • وكان مولده منتصف شوال سنة ٥٢٥ هـ والله أعلم •

ولكن الحقيقة أن هذا التاريخ الذى عرضه العماد الكاتب انما لمولد والده ووفاته • وأن سنة ٥٨٠ هـ هى السنة التى مات فيهـا جده • وقد أشار الى تلك التواريخ الشاعر نفسه فى القصائد التى رثى بها والده وجده (٢) •

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان •

(٢) راجع الديوان : قصائد رثاء أبيه وجده •

موقف ابن سناء من الحروب الصليبية :

١ ـ الحملات الصليبية وأثرها

٢ ـ عماد الدين زنكى

٣ ـ نور الدين محمود

٤ ـ ظهور صلاح الدين على مسرح السياسة

٥ ـ توحيد مصر والشام والجزيرة

٦ ـ أثر الوحدة العربية فى الحروب الصليبية

٧ ـ موقعة حطين

٨ ـ فتح القدس

٩ ـ نكسة

٣

موقف ابن سناء الملك من الحروب الصليبية

الحملات الصليبية :

وجدت الدعوة الى حرب المسلمين فى بلاد الشرق آذانا صاغية فى أوربا ، فلم يجد « بطرس الناسك » ولا البابا «أوريان الثانى» ، وهما أول من دعا الى الحروب الصليبية ، وحماية قبر المسيح ــ لم يجدا عناء ولا مشقة فى اقناع الأوربيين ، فقد كانت نفوسهم مهيأة لهذه الدعوة التى سوف تنقذهم من القحط والجدب المخيف الذى تعرضت له كثير من المدن الأوربية ، حتى أن مدنا وقرى بأكملها صارت خرابا لاسكان فيها ، ولا أمن يسودها بل انتصب قطاع الطرق فى كل مكان يعيثون فى أرجائها فسادا ، وقتلا وانتهابا(١)،

Histoire des Croissades, p. 57; History of the Saracans, by Ameer Ali, p. 323.

وانتشرت الفوضى ، وضعفت الحكومات عن السيطرة على الأفراد والجماعات ، ونصب كل فرد من نفسه حاكما ، يصون حقوقه بسيفه ، ويغسل عن نفسه الاهانة بحديده وناره ، ولمس البابا ذلك كله فى نفوس الناس ، فحول نشاطهم من حرب بعضهم بعضا الى حرب المسلمين فى الشرق ، وقد رحب بها الملوك ليتخلصوا من منافسات أمراء الاقطاع، ووجد فيها الأمراء فرصة لتأسيس اقطاعات جديدة لهم فى الشرق ، ورحب بها الأقنان ليتخلصوا مما كانوا فيه من فقر واستعباد وارهاق .

وساعد على ذلك ما بين العرب من تفكك وضعف ، فالصليبيون لم يواجهوا دولة عربية متحدة ، وانما واجهوا دويلات عربية متنافسة متناحرة ، كالسلاجقة فى العراق والشام ، والفاطميين فى مصر ، وبين الدولتين العربيتين عداء محكم ، فالسلاجقة سنيون ، والفاطميون شيعة ، وحالة الحرب والتآمر سائدة بينهما ، حتى ان الصليبيين عندما توجهوا الى بلاد الشرق وجدوا من العرب من تآمر معهم على العرب ، وتحالف معهم ضدهم ، ونصرهم عليهم ، وكان عداء البابوات ، ورجال الكنيسة للدين الاسلامى وتعصبهم المقوت عليهم من أهم العوامل التى جعلتهم يدعون للحروب الصليبية بحجة استخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين وعنتهم فى معاملة المسيحيين ، أو اهانة قبر المسيح ، وقد غالى رجال دينهم فى تصوير ذلك مغالاة أثارتهم (١) ، ولم يكن لذلك فى الواقع ظل من الحقيقة، فلقد كان حكام فلسطين يعاملون المسيحيين ، كما قال المؤرخ الفرنسى : «Michaya» كحلفاء وأنصار ، فشجعوا تجارة الأوربيين ، والحج الى الأماكن المقدسة ، وبنيت من جديد أسواق

(١) أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة : ص ٢٦ ، ٢٧

الفرنج فى مدينة بيت المقدس ، وأقيمت نزل الحجاج ، وأصلحت الكنائس المخربة » (١)

لهذه الأسباب المتقدمة ، ولأسباب أخرى لا داعى للافاضة فيها اندفع موج متلاطم من مسيحي غرب أوروبا الى الشرق العربى يبغون تأسيس امارات واقطاعيات ، واعادة ما فتحه العرب مما كان تحت يد الفرنج ، وقد استمرت هذه الحروب زهاء قرنين من الزمان من (٤٩٠ هـ ـ ٦٩٠ هـ) « ١٠٩٧ ـ ١٢٩١ م) (٢) .

وقد استطاع الصليبيون بسهولة أن ينتزعوا من أيدى المسلمين المتفرقين ما كانوا يحتلونه فى آسيا الصغرى ، ثم كونوا أربع امارات صليبية فى الشرق العربى وهى : « الرها » على أطراف العراق والشام ، ثم «أنطاكية»و «بيت المقدس» وأخيرا «طرابلس» بالشام ، وقد اقتسم أمراء الحملة الصليبية هذه الامارات ، فنصب كل منهم نفسه ملكا على امارة منها ، وأقاموا فيها حكومات اقطاعية، على النمط الذى ألفوه فى أوروبا قبل مجيئهم ، وقد لقيت البلاد المفتوحة على أيدى الصليبيين أقسى ما عرف من ألوان التخريب والتدمير ، ونال سكانها أشد ما ينزل من القتل ، والذبح والاحراق (٣) . ويقول أمير على : « لقد كانت شوارع انطاكية الضيقة ، وميادينها الرحبة تجرى بالدماء الانسانية وأن أقل تقدير

---

(١) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام للدكتور أحمد أحمد بدوى : ص ٩ . Histoire des Croissades, p. 21

(٢) مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية : محمد عبد الله عنان ص ١٠٧ ـ ١١٥ طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ م .

(٣) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية : ص ١١ .

لمن ذبح فى أنطاكية يبلغ عشرة آلاف نفس ، وفى « معرة النعمان » ذبحوا مائة ألف من الناس ، جرت دماؤهم فى الشوارع ، ثم أعاد « بوهمند »(١) النظر فى أسراه فمن كان منهم قويا جميلا احتفظ به رقيقا ، يباع فى أسواق أنطاكية ، ومن كان معمرا أو مريضا قتل على مذبح القسوه ٠»(٢) ٠ وفى بيت المقدس ذبح المسلمون فى الطرقات والمنازل ولم يعد فى بيت المقدس ملجأ للمغلوبين ، فبعض الذين فروا من القتل ، ألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار وآخرون جروا جماعات ، واختبئوا فى القصور وفى الأبراج وبخاصة المساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفروا من ملاحقة الصليبيين لهم، فدخل المسجد مشاتهم وفرسانهم ، واختلطوا بالمنهزمين ، وفى وسط أشنع ضوضاء كنت لاتسمع الا الأنين وصيحات الموت ، لقد كان المنتصرون يسيرون على أكوام من الجثث ليتبعوا من يحاول الفرار عبثا ، وقال شاهد عيان : ــ « ارتفعت الدماء الى ركب الخيل وأعنتها فى الهيكل ، وتحت ايوان ٠ المسجد (٣) ، وقد بلغ عدد القتلى نحو سبعين ألفا من المسلمين لم يرحموا شيخا طاعنا ، ولا طفلا رضيعا ، ولم تشفع لديهم صرخات الأرامل ، ولا أنين الثكالى ، وانما دفعهم الغيظ والحقد ، وأنساهم التعصب ما وصلته بعض البلاد من رقى وحضارة وتقدم ومدنية ، كما كانت عليه «طرابلس» فأحالوا بهجتها الى وحشة ، وعمرانها الى خراب،ومكتبتها ومدرستها ومصنع ورقها الى رماد(٤) ٠

---

(١) بوهمند النورمندى ابن ملك جنوب ايطاليا ٠

(٢) History of the Saracans والحياة الادبية لاحمد بدوى ص ١١

(٣) الحياة الادبية : ص ١٣ ، والحروب الصليبية فى المشرق والمغرب : محمد العروسى المطوى : ص ٣٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ : ١٤٨ ، ١٤٩ ٠

(٤) النجوم الزاهرة جـ ٥ ١٤٨ ــ ١٥٠ ٠

ولم تكن أوضاع العرب ، وماهم فيه من فرقـــة وانقســـام وما بين بلادهم من آختلاف المذاهب والآراء ـ لم تكن تســـمح لهم بمقاومة هؤلاء الطاغين الباغين ، القساة الظالمين فقد كانت الشـــام مجزأة ومقسمة فكل بلد كبير منها امارة وعلى كل امارة أمير يطمع فى تقوية ملكه وتثبيت عرشه وتوسيع رقعة بلاده. ورأى الفاطميون فى مصر أول الأمر أن ذلك الاعتداء الصليبى لايهمهم ، فليس عليهم أن يذودوا عن الشام التى تدين بغير ما يدنيون ، والتى تتبع غير ما يتبعون . وشغلتهم المؤامرات والدسائس وانصرفوا عن مقاومة الصليبيين ، وتلك سياسة قصيرة النظر أدت الى استيلاء الفرنج على ما كان الفاطميون يمتلكونه فى فلسطين من مدن (١) .

وهكذا استطاع الفرنج أن يثبتوا أقدامهم ولو الى حين فى الشام ، وملأ الغرور نفوسهم ، وحاولوا أن يضربوا الاســـلام فى عاصمتيه « بغداد » و « القاهرة » ، ولكنهم أخفقوا : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا .. » .

عماد الدين زنكى :

كانت الحملات الصليبية ، وما أحدثته من تخريب وتدمير ، وظلم وعســـف ، وقتل وســـلب ، الناقوس الذى دوى فأيقـظ المسلمين من سباتهم ، والأمراء من أبراجهم ، وفتح عيون المبصرين منهـــم الى الخطر الماحق الذى يتهددهم ، وكان أول الأمـــراء الذين تعرضوا للصليبيين فى قوة وعزم هو « أتابك عمـــاد الدين زنكى » أمير الموصل الذى بدأ يوحد قوة العرب تمهيدا لمهاجمة الصليبيين فضم «حلب» اليه ، وبذلك استطاع أن يهدد امارتين صليبيتين هما امارة «الرها» و «أنطاكية» وقد حاصر «عمـــاد الدين زنكى» «الرها»

---

(١) صبح الأعشي ص : ٥٢٣ .

بعد ذلك ، وكانت أهم معقل للصليبيين فى شمال العراق ، واستمر يحاصرها حتى سلمت له سـنة (٥٣٩) هـ (١١٤٤ م) (١) ٠ وكان ذلك الانتصار ضربة قاصـمة للصليبين اذا انكمشت املاكهم بعد ذلك ، واقتصرت على ساحل الشام ، وظل « عماد الدين زنكى » يتعقب معاقل الصليبيين ، ويقض مضـاجعهم حتى قتل غيلة على قلعة جعبر ، وهى على الفرات بين « بالس » و « الرقة » قرب «صفين» (٥٤١ هـ) (١١٤٦ م) (٢)

نور الدين محمود :

ترك « عماد الدين زنكي » أمر الصـليبيين من بعده لابنه « نور الدين محمود » الذى انتقلت فى أيامه الحرب الصـليبية الى مرحلة ثانية ، فقد قامت فى امارة « الرها » فتنة عاصفة ، وقدمت من أوروبا نجدات صليبية تقصد اعادة « الرها » ولكنها تحولت عنها الى حصار دمشق ٠

ولم يكد الأمر يستقر «لنور الدين» وأخيه «سيف الدين غازى» صاحب الموصل حتى اتجها الى اخمـاد الثورة فى الرها فتمكنا من اخمادها ، وتصدى « نور الدين » بعد ذلك لمواجهة الحملة الصليبية الثانية التى حصرت «دمشق» واستطاع أن يهزم الصـليبيين ٠ ويرغمهم على رفع الحصار عن « دمشق » ، وقد استطاع «نور الدين» أن يضـم « دمشق » سنة ١١٥٤ م ، وبذلك خطا خطوة هامة فى سبيل توحيد الجبهة الاسـلامية ضـد الصليبيين الذين أصبحوا مهددين بقوات « نور الدين » من الشمال والشرق ، وقد حاول بعض

(١) الحروب الصليبيـة فى المشرق والمغـرب : ص ٤٥ ، والرها : هى مدينة أورفا الحالية بشرق تركيا شرقى الفرات ، وتسمى خليج الاسكندرونه (معجم البلدان) ٠

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٥ : ٣٨١ ٠

وزراء مصر كطلائع بن رزيك أن يتفق مع نور الدين على مهاجمة الصليبيين من الشمال ، ومن الجنوب ، حتى يقضوا عليهم قضاء نهائيا ، ولكن الاختلاف المذهبى بين « نور الدين » السنى ، والوزير الفاطمي الشيعى قد حال دون ذلك الاتفاق . (١)

ولما أحس الصليبيون بتضييق الخناق عليهم فى الشام، وجهوا جهودهم الى مصر ، فحاولوا أن يستولوا عليها وشجعهم على ذلك ما كانت عليه مصر آنذاك ـ فى أواخر الدولة الفاطمية ـ من ضعف الخلفاء ، واستبداد الوزراء بهم ومحاولة كل وزير اعتلاء الوزارة بطريق الدس والفتن ، والوشايات والحروب .

مهدت هذه الفوضى الداخلية فى مصر الى تدخل الصليبيين من جهة ، كما مهدت لتدخل نور الدين محمود من جهة أخرى ، حتى آل الأمر الى القضاء نهائيا على الدولة الفاطمية وزوال أسباب الجفوة المفتعلة بين الشام وبين مصر على يد البطل القوى ، والقائد العظيم الملك الناصر « صلاح الدين الأيوبى » .

وبذلك نكون قد أوضحنا الخطوات التى خطتها الحروب الصليبية حتى ولى الأمر « صلاح الدين » ، وأنها كانت الشر الذى انبثق منه الخير ، فحقا انها عاثت فى بلادنا العربية فسادا ونشرت ظلما واضطهادا ، واستذلت بلادا وسكانا ، الا أنها مع ذلك هيأت الجو لقيادات صالحة ، ومهدت لفجر جديد ، أشرق على البلاد العربية التى وحدتها الأهداف ، وقوتها الأحداث ، وما أشبه الليلة بالبارحة، وما أشد الشبه الآن بين اسرائيل الدخيلة ، وبين الصليبيين السفاكين ، وكما اجتاحت العروبة الموحدة شأن الصليبيين ، وطهرت البلاد من رجسهم فكذلك سيكون الشأن مع اسرائيل ..

---

(١) الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية لاحمد بدوى ص ١٤ .

توحيد مصر والشام والجزيرة وديار بكر وأثر ذلك فى هذه الحروب :

لم يكد «صلاح الدين» يلى وزارة مصر حتى وجه كل همه وذكائه الى استقرار الأمور فيها ، فكان لين العريكة سمحا ، قوى البأس شديدا ، ثاقب النظرة ، يرى ما وراء الظواهر ، حتى استطاع أن يقضى على الفتن والدسائس التى كانت كل هم القصر ، ولم يمكن الوشاة من أغراضهم الدنيئة ، وكانت «وقعة العبيد» احدى الوقعات الكبرى التأديبية لكل من تسول له نفسه الخيانة ، وطلب العون من الفرنج أعداء البلاد • (١)

وفى سنة ٥٦٧ هـ مات «العاضد» آخر خلفاء الدولة الفاطمية، واستبد « صلاح الدين » بسلطنة مصر ، وخطب للخليفة العباسى فى أول المحرم سنة ٥٦٧ هـ ، ثم وجه عنايته الى استتباب الأمور ، واستقرار الأمن ، وتوحيد البلاد ، فأرسل أخاه « تورانشاه » الى فتح بلاد النوبة ، فوطد الأمور بها ، وأمن جنوب البلاد • وفى سنة ٥٦٩ هـ سار « شمس الدولة تورانشاه » الى اليمن اذ لم يجد فى النوبة طائلا ، فاستقر فيها أمره ، وعاد الى « زبيد » فملك الحصون والجند ، وقد مدحه الشاعر « عمارة اليمنى » بكثير من القصائد ، وحبب اليه فتح بلاد اليمن •••

ولما استقرت أمور « صلاح الدين » فى مصر وجه اهتمامه الى الشام لأنه رأى أن القضاء على الصليبيين لن يتيسر له الا اذا توحدت أجزاء الوطن العربى ، وبخاصة بلاد الشام حتى يتيسر حصر العدو وتضييق الخناق عليه ، ووقوعه بين فكى الكماشة ، ولذا انتهز «صلاح الدين» وفاة الملك العادل «نور الدين محمود» سنة ٥٦٩ هـ واتجه الى الشام فى جيش كثيف بحجة أنه سيحمى الملك الصالح

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ : ص ٣ .

اسماعيل الذى ولى الأمر فى « دمشق » بعد موت أبيه « نور الدين » لصغر سنه ، وعدم قدرته على مواجهة أعباء الحكم (١) ٠

وسرعان ما استقبل « صلاح الدين » فى دمشق استقبال الفاتحين الظافرين ، فوزع الجوائز والمنح ، والتف حوله الشعراء والأدباء ، يمدحونه ويشيدون ببطولته وانتصاراته ٠

أثر هذه الوحدة فى الحروب الصليبية :

لقد يسرت هذه الوحدة بين أجزاء الوطن العربى توحيد القيادة العربية ، ووفرت الموارد ، وقطعت أسباب العداء والخلاف بين القواد، كما أتاحت وحدة المذهب الدينى ، وانتشار المذهب السنى، وقضت على الدسائس والمؤامرات فى القصور (٢)

ولقد كانت هذه الوحدة أملا يداعب خيال الشعراء ، والأدباء والمخلصين ، وأوحت هذه الوحدة للشعراء بفن جديد أطلق عليه الدكتور « محمد كامل حسين » « فن الشعور بالقومية الاسلامية » وقد اشترك فى هذا الفن عدد كبير من الشعراء في مختلف البلاد الإسلامية ومحيت فكرة تفضيل العرب على الأعاجم (٣) ٠ وسرعان مادب الرعب والفزع فى نفوس الصليبيين فلم تغن عنهم كثرتهم شيئا ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وتوالت هزائمهم ، وانكشفت ظهورهم ، ووقف صلاح الدين أمام الصليبيين سدا منيعا وصخرة عاتية ، تكسرت عليها آمالهم ، وانهارت مطامعهم ، وكانت قصائد ابن سناء التسع التى مدح بها (صلاح الدين » سجلا رائعا لتلك المعارك ، وهذه الانتصارات التى سجل بها « صلاح الدين »

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٢٤ ٠

(٢) راجع منشور الرقة الذى كتبه القاضى الفاضل فى الروضتين جـ ٢ : ص ٤٧ ٠

(٣) دراسات فى الشعر فى عصر الايوبين : د ٠ محمد كامل حسين : ص ٨٧ ٠

اسمه فى سجل الخلود ، وأملى على الأحداث تاريخه المشهود ، وبهر الشعراء جميعا ، وهزت مواقفه نفوسهم ، وخلق بمواقفه البطولية فى صد الصليبيين لونا من الشعر الحماسى ، وحسبنا أن نتتبع قصائد ابن سناء تاريخيا لنعرف دوره فى تسجيل تلك البطولة الرائعة .

ففى سنة ٥٧٥ هـ نازل « صلاح الدين » الصليبيين قرب «بانياس» وأسر فرسانهم ، وشجعانهم ، وانهزمت جموعهم فى أول لقاء فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، وصاحب طبرية ، وأخو صاحب جبيل ، وابن القميصية ، وابن بارزال صاحب الرملة (١) وغيرهم ، ولذا مدح «ابن سناء» السلطان صلاح الدين بقصيدة نونية مطلعها : ـ

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى
ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا

وبعد خمسة عشر بيتا خصها للنسيب انتقل الى مدح الناصر فقال :

فدى لابن أيوب الملوك فانهم ... اذا بخلوا أعطى وان أفقروا أغنى
فدى كل من يعطى المئين عفاته ... ترى ملكا يعطى الأقاليم والمدنا
ولم يكفه أن أخجل البيض بالدما ... الى أن أرانا جوده أخجل المزنا

ثم تحدث ابن سناء عن نصره الاسلام وتحطيمه الكفر ، وفرار الأعداء أمامه ، وأسر من تشجع منهم ووقف ، وتحدث عن اشتداد المعركة وتشبع السيف من دمائهم ، وسأم الأبطال للنزال ، وهرب ملكهم فزعا يتحسس قفاه ، ويحسبه لشدة الهول مطعونا فيه ، ثم أسره بعد ذلك الملوك والقواد :ـ

ولما رأوه أدبروا حين عاينوا ... اعنة خيل لا تعود ولا تثنى

(١) الروضتين : جـ ٢ : ص ٨ .

وقـد وقفوا لكن لأسر رقـابهم وقطف رءوس منهم آن أن تجنى

ثبت لهم والسيف قد كره الطلى وجالدتهم والقرن قد سئم القرن

بضرب يذيب الشمس في الأفق حره ويحرق ما بين القلوب من الشحنا

مضى ملكهم في أول الأمر هاربا يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا

ولم يقرع الناقوس بعد انهزامه ولكنه من بعده قرع السـنا

وأضحى أسيرا بادويل وغـيره قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنا

أسارى جبارى لا يرجون فدية ولا يأملون الدهر فكا ولا أمنا

بكى « الكند » واليسكند لا وحشه لهم

ولكن على نفسـيهما أسـبلا الجفنا

غـدا « بادويل » وهو يلعن نفسـه

وحق لتـلك النفس أن تربح اللعنـا

وفى نهاية سـنة ٥٧٧ هـ اتجه السـلطان « صلاح الدين » صوب حلب قاصدا الاسـتيلاء عليها توحيدا للعروبة حتى تقف صفا واحـدا أمام جحافل الصليبيين ، وحتى يكون القائـد الموجه للمعركة واحدا فلا تطل الخيانات برأسها ، ولا تلهى القواد مصالحهم الشخصية عن المصالح الكبرى للأمة الاسلامية ، فأرسل الى واليها « عماد الدين زنكى » الذى كان قد قرر لقاءه ، وتحصن بأجنـاده وعساكره أرسل اليه مهددا متوعدا ، فلما رأى « عماد الدين » أن لا قدرة له على لقائه تراجع وقبل أن ينزل عنها بغير حرب ، على أن يعوضه السلطان عنها « سنجار » فرد السلطان عليه «سنجار» وخلع عليه مدنا أخرى (١) ، واستولى « صلاح الدين » على حلب وأصـبحت جـزءا من الدولة الكبـرى التى تدين لصـلاح الدين بالطاعة ، وهزت انتصاراته تلك قريحة « ابن سناء الملك » فمدحه بقصيدة بائية مطلعها : —

(١) الروضتين : جـ ٢ ص ٤٢ .

بـدولة الـتـرك عزت ملـة العـرب

وبابن أيوب ذلت شـيعة الصلب

وكان الأتراك عنصرا هاما فى كيان الدولة الاسلامية ، ولذا امتدحهم الشاعر فى مطلع قصيدته ، ثم أشار الى فتح حلب وضمها الى مصر : ـ

وفى زمـان ابن أيوب غدت حلب

من أرض مصر وغارت مصر من حلب

وقدترك الغزل فى هذه القصيدة على غير عادته ، وأشار الى ذلك بقوله :

ألهى مـديحك شـعرى عن تغزله

فجـاء مقتضبا فى اثر مقتضب

فلم أقل فيـه لا أن الصـبابة لى

يـوم الرحيـل ولا أن المليـحة بى

فقد انشغل عنه بمدحه ، وحديثه عن فتوحه فى أرض الجزيرة وسياسته الحكيمة فى التغلب على أعدائه : ـ

أرض الجزيـرة لم تظفر ممالكهـا

بمـالك فطن أو سـائس درب

وكانت أوصال الدولة الاسـلامية مفككة ، وعلى كل جزء منها ملك ليس له من الملك غير الاسم ، أما قيـادته وتصريفه ففى يد مملوك خصى ، ليس له من الفهم والدراية أكثر ممـا لصـبى ، ويسجل ابن سناء هذا كله فى تلك القصيدة فيقول : ـ

ممـالك لم يدبرهـا مدبرهـا

الا بـرأى خصى أو بعقـل صـبى

حتى أتاها صلاح الدين فانصـلحت

من الفسـاد كما صحت من الوصب

واستعمل الجد فيها غير مكترث
بالجد حتى كأن الجد كاللعب

وقد حواها وأعطى بعضها هبة
فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب

ثم يشير الى تفضله على حاكم « حلب » وتعويضه عنها ببعض المدن : ـ

ويمنح المدن فى الجدوى لسائله
كما ترفع فى الجدوى عن الذهب

ومذ رأت صده عن ربعها حلب
ووصله لبلاد حلوة الحلب

غارت عليه ومدت كف مفتقر
منها اليه ، وأبدت وجه مكتئب

وكان الشاعر فى هذه القصيدة موضوعيا ، وما أجدر هذه القصيدة أن توضع الى فرائد المتنبى فى سيف الدولة ـ سجل الأحداث وانفعل بها ، وعبر عن مشاعره وأحاسيسه ، وتجربته الواعية الصادقة ، ولذا نخرج بهذه القصيدة عن نطاق العقم فى شعر « ابن سناء الملك » الذى وصمه به الدكتور الأهوانى فى كتابه « العقم والابتكار » (١) ولعل عذره فى ذلك أنه لم يدرس شعر ابن سناء دراسة تفصيلية ٠

وقد استولى صلاح الدين على حلب فى نهاية عام ٥٧٩ هـ ثم استمر فى مناوشاته الصليبيين حتى كانت موقعة حطين الكبرى سنة ٥٨٣ هـ وفى هذه الأثناء كان ابن سناء يسجل هذه الأحداث،

---

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٧٧ ـ ١٥٢ ٠

ويشعل الحماس فى نفوس المحاربين ، ويقوى عزائمهم ، ويشيد ببطولة صلاح الدين ، ففى سنة ٥٨١ هـ ارسل من مصر قصيدة سينيه يمدح فيها صلاح الدين ، وقد أرسلها اليه عن طريق أستاذه القاضى الفاضل ومطلعها : —

أمجلس لهوى ليس لى منك مجلس
لأوحشت لما غاب لى عنك مؤنس

وقد تأثر فى هذه القصيدة بقصيدة المتنبى التى مطلعها : —

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وقد خص الشاعر من هذه القصيدة عشرين بيتا للغزل ، ولكنه مدحه فى الباقى منها ، وهى من الشعر الحماسى ، تحدث فيها الشاعر عن بطولة « صلاح الدين » وأنه شاد للجهاد دارا منيعة ، بناها الرمح ، وهندسها الحسام ، والقسى تنحنى لراحة السلطان ، والسلطان يرى فى وسط المعارك جذلا ضاحكا ، مستهينا بالحرب ، وجواده هو الذى يعبس ويهتم ، ورءوس الأعادى وأيديهم تتطاير فى المعركة ، وتتقدم اليه معتذرة ، وجحفله يجر الدروع ، وحصانه ملثم بالحديد ، : —

وماذا تقول المدح فيه ومدحه
بآثاره يروى ويقرا ويدرس

ومن شاد دارا للجهاد فأصبحت
بها الرمح يبنى والحسام يهندس

لراحته تحنى القسى وبعضها
هلال له فوق السماء مقوس

يرى جذلا فى حومة الحرب ضاحكا
فلا القلب منحوب ولا الوجه معبس

وبين البيت الأخير وبين بيت المتنبى : —

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

تشابه واضح فى المعنى . ويقول « ابن سناء » فى حصان السلطان : —

أغار عبوس الوجه فيها جواده
ومن عجب أن الجواد يعبس

تطير اليه طالبات أمانه
ومعتذرات منه أيد وأرؤس

وكل حصان بالحديد ملثم
عليه كمى بالحديد مقلنس

وهو من قول المتنبى : —

أتوك يجرون الحديد كأنما
سروا بجياد ما لهن قوائم

ويقول ابن سناء :

تزاحمت الأبطال فيه فخرقت
ثيابا لها من عهد داود تلبس

وهو شديد الشبه بقول المتنبى : —

تقطع مالا يقطع الدرع والقنا
وفر من الفرسان من لا يصادم

ويقول ابن سناء : ـ

لك المدح منى تنتشى السامعون به
كأن مديحى فى معاليك أكؤس
كلانا بديع الصنع مدحى مطبق
وجأشك فى قهر الملوك مجنس

وهو قريب الشبه بقول المتنبى : ـ

لك الحمد فى الدر الذى لى لفظه
فانك معطيه وانى ناظم

وقد وصلت قصيدة « ابن سناء » الى القاضى الفاضل ، وهو فى دمشق ، وكان الملك الناصر مريضا مرضا خطرا « بحران » فأخر انفاذها اليه حتى عوفى .. فكتب «ابن سناء» قصيدة أخرى فائية فى مدح الناصر مطلعها : ـ

نظر الحبيب الى من طرف خفى
فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

وكتب معها رسالة الى القاضى الفاضل جاء فيها : ـ

« والقصيدة السينية قد صادفها زحل فى الطريق ، وحرمها التوفيق .. » فأجابه القاضى الفاضل فى كتابه الى ابنه الأجل الأشرف : « والقصيدة السينية ماوافقها زحل فى طريقها ، بل يقوم المشترى أحسن القيام فى قضاء حقوقها ، وتأخرت عندى الى أن سيرتها مقترنة بالفائية ، لتكون البلاغة أكثر نفيرا . ويكون بعضها لبعض ظهيرا ، ولو أنصفناه لكان أدنى مافيها من بيت يعمر ألف بيت ، وكان يوسف عروسها قد قال لها وأغناها عن أن تقول: هيت ، وقرنتها بفصل الى المقام الناصرى نبهت فيه على أنها من القال الفصل ، وأقمت الشهادة فى بابه وان كان صغيرا فانه

كبير أهل الفضل الذى علمهم الفضل وأن الدولة بمدحه قد أنزل الله عليها فى الغابرين ، وأبقى لها ذكرا حسنا فى الذاكرين » .

ويهمنا فى هذا المقام أن نشير الى موضوع القصيدة الفائية ، فلقد خص منهـا ثمانية عشر بيتا للغزل ثم هنأ السلطان بالشفاء من مرضه ، وأشار الى كمد الصليب بشفائه ، وبشر المسلمين بنجاته، وأن الله قد اصطفاه لنصرة دينه ، وحمى به الدين من أن يمحى ، وجعل أكبر كافر يعنو لأصغر مسلم ، ثم أشار الى أمله فى أن يكون فى حاشيته « صلاح الدين » لأنه نذر أن يحج بيت الله اذا شفى السلطان ، وقد شفى فحق عليه أن يحج ، وحبذا اذا كانت تلك الحجة ، وهو فى ركابه وحاشيته حتى يفوز بأمر مضاعف : ـ

ولقـد نـذرت عـلى شـفائك حجة
ولقـد شفيت فقـد تعـين أن أفى

سهلت لى حجى فمنـك موصـلى
لمنى وجـودك مـوقفى فى المـوقف

ولئن تيسر مـع ركابـك قابـلا
حجى فيا فوزى بأجـر مضـعف

انى بـذا أدعـوا وأسـأل ملحفا
والله ليس يـرد دعـوة ملحف

وقد قرظ هذه القصيدة القاضى الفاضل ، وقرنها بالمعلقات بل جعل المعلقات دونها جودة وبلاغة ، لأن هذه فضلتها بجودتها وجدتها : « وأما الفائية فالوأواء عندها فأفاء ، ومن هو الـوأواء الركيك ، بل كل شاعر مفلق على حروف المعجم عندهـا فأفاء ، وأوجه الحساد عند سماع قوافيها أقفـاء ، ولو وفى سار بنظرة عندى لوفت ، ولو كفى مؤنس من ابنه لكفت ، ولو استعطفت

الفصاحة العربية الألسنة العربية بكلمة منها لعطفت وانعطفت ، ولو أن البلاغة حلة لـكان لابسها ، ولو أنّ الشعراء حلبة لـكان فارسها ، ولقد أنجب الزمان الذى ولده ، وفخر الولد الذى ماقضى حقه أن أحبه » (١) ، وقد وصلت القصيدتان الى « صلاح الدين » ولكنه لم يفعل شيئا للشاعر ، اذ أن انشغاله بالحروب الصليبية آنئذ قد ألهاه عن التفكير فى الشاعر .

وفى سنة ٥٨٢ هـ ظهر نجم فى السماء له ذؤابة ، ولم تجر العادة بظهور مثله فكان حديث المنجمين ، وشغلهم الشاغل ، ويبدو أن ظهوره قد خالف ما ارتأوه قبلا من أنه لن يظهر الا وقت اقتران الكواكب فى الوقت الذى حددوه ، ولذا أشار ابن سناء الى خطئهم بقوله فى هذه القصيدة : —

نجومـك ما أعيت على راصد لهـا
وذا النجـم أعيـاراصـدا ومنجما

وقد استهل هذه القصيدة بقوله : —

أرى كل شىء فى البسيطة قـد نما
بعدلك حتى قد نمت أنجم السـما

وهو تعليل لطيف لطول ذؤابة ذلك النجم ، وكان هذا النجم يسمى « الكف الخضيب » ، وقد رأى الشاعر أنه أخر ظهوره فى السما حتى تحلى الدهر بظهور « صلاح الدين » نظهر هو كذلك فى السما تكريما له :—

وما برح « الكف الخضيب » معـطلا
فلما تحـلى الدهر منـك تختمـا

---

(١) فصوص الفصول .

فلا تفتخر كف السماء بنجمه
فكم أطلعت أفعالك الغر أنجما

وبعد أن خص النجوم فى مطلع القصيدة باثنى عشر بيتا انتقل الى مدحه وبالغ فيه مبالغة غير مقبولة حتى جعل المقادير رهن اشارة السلطان ، فلا يستطيع أن تغير ما يبرمه ، ولا أن تبرم ما ينقضه .

فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا
وما ينقض المقدار ما كنت مبرما

وجعله فريدا لا يدانيه أحد من الملوك والعظماء ، فهوالحليم وهم الجهلاء ، وهو العظيم وهم الأذلاء ، وهو يعطى اذا بخلوا ، ويعفو اذا عاقبوا ، ويفى اذا غدروا ، ويسموا اذا هبطوا وأن سيرته لم تدع فى الأرض ظلما ، وكرمه وعطاؤه لم يبق معدما فنائله يسعى الى كل سؤاله حتى أفسدت كثرة عطاياه قصاده لأن عطاءه كالربيع بعد المحل : ـ

فلا تقرنوه بالملوك فانه — أجلهم أرضا وأعلاهم سنا
يخفون جهلا حين يحلم قدرة — ويخفون ذلا حين يبدو تعظما
اذا بخلوا أعطى ، وان عاقبوا عفا — وان غدروا أوفى،وان هبطوا سما
فسيرته لم تبق فى الأرض ظالما — ونائله لم يبق فى الخلق معدما
له نائل يسعى الى كل سائل — فيطلبه بالماء والزاد أينما
وكم أفسدت أمواله قاصدا — له،وقديرجع الشىءالصحيح مسقما
أتاه فألفاه ربيعا وقبله — رأى كل جود فى الأنام المحرما

ثم انتقل الى بطولته وشجاعته ، ودفاعه عن الاسلام ، وعن

البيت المحرم الذى أنقذه من براثن الكفر ، ولولاه مابقى زمزم ، ولتحطم الحطيم : —

لقـــد نصر الاســـلام منهـم بناصر
يرى مغنما فى الدين ما كان مغرما

يـــذب عن البيت المحرم جنـــده
فلـولاهـــم ما كان بيتـا محـرمـا

ولـولاهـــم ما كان زمـزم زمـزما
ولـولاهم كان الحطـــيم محطمـــا

وقد تنسك بالاسلام ، ولكن الشرع أحل له أن يشرب دماء الأعداء ، وكل حمى أمامه لايحمى صاحبه : —

تنســـك بالاســـلام لـكن رأيتـه
يحـل له بالشرع أن يشرب الـدما

فـكم سل لمـا سـل من بطن غمده
لســـان دم من ضربة خلقت فمـا

اذا ما صـلاح الدين ســار بجيشه
فليس الحمى ان أمـه الجيش بالحمى

تـكاثف فيـه النقع واستلت الظبى
بآفاقـــه حتى أضــــاء وأظلمـــا

وهى كما ترى من الشعر الحماسى، الذى خلقته الحروب الصليبية وقد اعتذر الشاعر عن تأخير النسيب لأن مدائح السلطان أوجبت تأخيره : —

ففى مدحه صار النسيب مؤخرا
ومن أجله عاد المدايح مقدما

رأى مادحوه المدح أولى فأقبلوا
عليه ، وخلوا ذكر سعدى وكلثما

وفى هذه السنة نفسها زعم المنجمون أن الكواكب الستة سوف تجتمع فى الميزان وعندما تهيج رياح زعزع تهلك الحرث والنسل ، وخوفوا الناس حتى شرعوا فى حفر مغارات وسراديب ، ونقلوا اليها الماء والطعام ، ولكن لم يحدث شيء فى هذا التاريخ الذى حددوه فكتب الشعراء معرضين بكذب المنجمين ، ساخطين عليهم وفى هذه المناسبة يكتب ابن سناء هذه القصيدة الى الملك الناصر ويبدؤها بالتعريض بالمنجمين : —

سعودك ردت ما ادعاه المنجم
وقد كذبته فى الذى كان يزعم

يبشر بالريح العقيم وانها
كما قال عما قاله بك يعقم

ويقسم أن الأمر لابد كائن
وبالأمر قد أحنثته حين يقسم

وجودك أمن للوجود من الذى
عن الريح يحكى أو به النجم يحكم

وقد قيل أحكام النجوم على الورى
وأنت على أحكامها تتحكم

ثم يهنؤه بالسلامة من المرض الذى كان قد أصابه ، وبحلول شهر رجب : —

نهنيـــك بالشهر المرجب انـه
يـرجب فينـا كاسمـــه ويعظـم

وبالبرء من بعـــد البشـــارة انـه
لجسمك برء بعـــده ليس يسقم

ونشهد أن الشهر شهر مبـــارك
عليـــك وأن البـرء بـرء متمم

وهذه القصيدة أشبه ما تكون بروح المتنبى قوة وسهولة ، ووصف بطولة ، وقـد أخر فيها النسيب كما أخـره فى القصيدة السابقة وأشار الى ذلك بقوله : ـ

فياناصر الـدين الحنيف حســامه
ونائـــله الفيـــاض يســلو المتيم

لمدحــك أخرت النســيب تهيبـــا
وعنـــدهم أن النســيب يقـــدم

وهذه القصيدة قالها الشاعر قبل سابقتها ، لأنه أشار هنـــا الى أن النجم المذنب لم يظهر ، وهناك أشـــار الى ظهوره ، وهـــذا يؤكد أسبقية تلك القصيدة .

موقعـــة حطين :

وفى نهار الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١) قصد « صلاح الدين » بعدد كبير من عسكره نحو طبرية (٢) ، على

---

(١) الروضتين : جـ ٢ : ٧٥ .

(٢) طبرية : بلدة مطلة على بحيرة طبرية الواقعة بين الاردن واسرائيـل وسوريا .

سطح الجبل ينتظر قدوم الصليبيين الذين اجتمعوا فى عـــدد كبير « بمرج صفرية » بأرض عكـــا ، ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم ، فهجم « صلاح الدين » على طبرية ، واستولى عليها فى ساعة واحدة ، ولما بلغ العدو ماجرى قلقوا ، وتحركوا للدفاع عن أنفسهم وملاقاة « صلاح الدين » فاستهان المسلمون بالموت ، وأحسوا قوة المبادىء التى يدافعون عنها ، وأرضهم الطيبة التى دنسها هؤلاء المعتدون ، وصاحوا فى قوة وايمان : « الله أكبر » فألقى الله الرعب فى قلوب الكـــافرين ، وشتت شـــملهم ، وراحوا يلوذون بالفرار ، وتبعهم المسلمون ، وأحاطوا بهم من كل جانب ، واطلقوا عليهم السهام ، وحملوا عليهم بالسيوف ، وسقوهم كأس الحمام ، واعتصمت طائفة منهم « بتل حطين »(١) فضايقهم المســـلمون ، وأشـــعلوا حولهم النيران ، واستبد بهم العطش ، فاستسلموا للأسر خوفا من القتل، فأسر مقدمتهم ، وقتل الباقون ، وكان من أسر منهم الملك«جودفرى» وأخوه الملك « بلدوين » و « أرناط » صاحب الكرك والشـــوبك ، وألهب هذا النصر قرائح الشعراء ، فراحوا يتغنون به ، ويزدهون بقائد الاســـلام ، ويندون بهـــذه الهزيمـــة النكراء التى لحقت بالصليبين ، وفى ذلك يقول العماد الكاتب قصيدة طنانة مطلعها :ـ

حططت على حطـــين قـــدر ملوكهـــم
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا (٢)

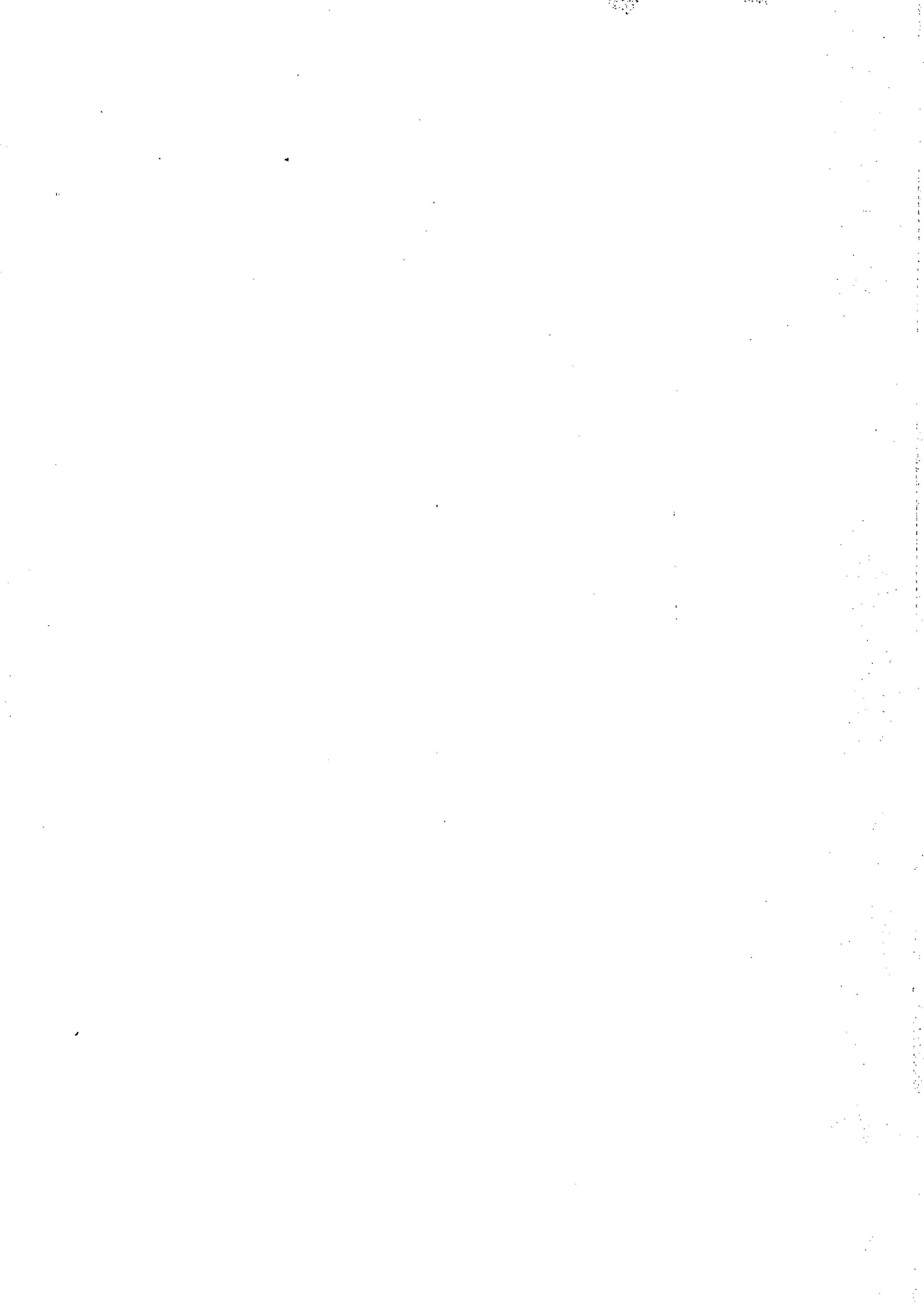
وقال ابن الساعاتى قصيدة عظيمة فى هذا الفتح مطلعها : ـ

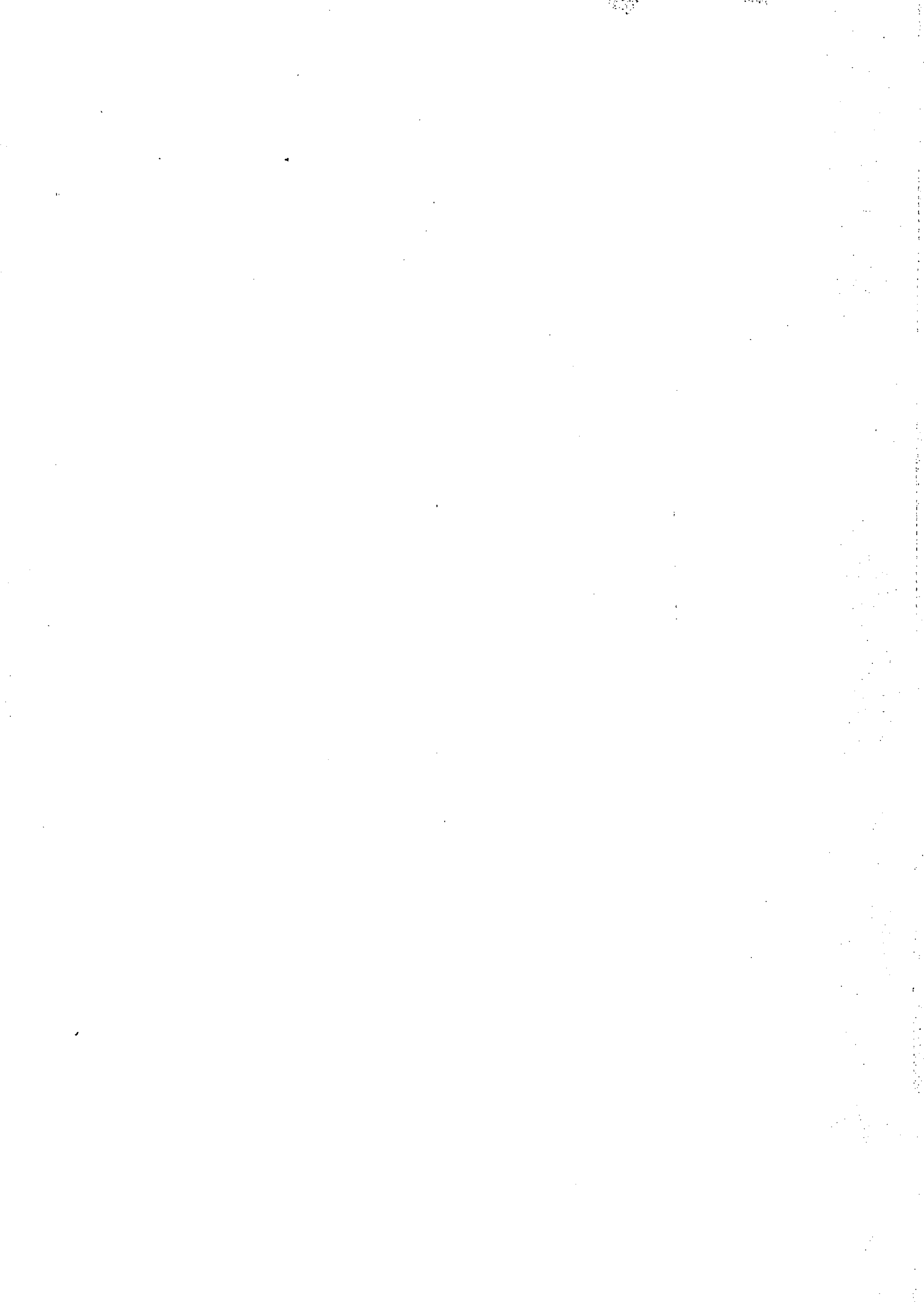
جلت عزمـــاتك الفتـــح المبينـــا
فقـــد قرت عيـــون المؤمنينـــا(٣)

(١) وهى قرية عندها ، قبر النبى شعيب عليه السلام .

(٢) الروضتين : جـ ٢ ص ١١٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٣٤ .

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٤ ، والنجوم الزاهرة جـ ٦ : ٣٤ .





ألسنة الشعراء بتمجيده وتعظيمه ، فمدحه فخر الكتاب أبو على الحسن بن على الجوينى المقيم بمصر بقصيدة مطلعها : —

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان (١)

وقد مدحه كذلك الشريف النسابة المصرى محمد بن أسعد المعروف بالجوانى نقيب الأشراف فى مصر بقصيدة مطلعها : —

أترى مناما ما بعينى أبصر
القدس يفتح والفرنجة تكسر(٢)

وقال أبو الحسين بن جبير الأندلسى : —

أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر

فأبشر فان رقاب العدا
تمد الى سيفك الباتر(٣)

ومدحه العماد الكاتب بقصيدة مطلعها : —

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا

ومنها : —

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى

---

(١) الروضتين جـ ٢ : ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٢) الروضتين جـ ٢ : ١٠٥ .
(٣) الروضتين جـ ٦ : ١٠٦ .

سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزمته القعسى

ومن العجيب حقا أننا لم نعثر لابن سناء على قصيدة فى هذه المناسبة وأغلب الظن أن قصيدته قد فقدت اذ أنه لم يكسر قلمه ، ولم يسد ثمه بعد ذلك ، وانما انطلق مغردا فى كل مناسبة حتى بعد وفاة صلاح الدين ، ولم يعرف أنه حنق أو تغير على صلاح الدين ·

نكسة :

وآذن سقوط « القدس » فى يد المسلمين بسقوط كثير من بلاد الفرنج وحصونهم(١) ، ولم يقف فى سبيلهم غير مدينة «صور» وقد حاصرها « صلاح الدين » واستدعى أسطولا من مصر لمعاونته ، ولكن أسطول « صور » خرج بالليل فأوقع بأسطول المسلمين على حين غرة ، وقتل عددا كبيرا مما أجبر « صلاح الدين » على الانسحاب ، ففرق عساكره ، ورحل الى « دمشق » ولم يكد يقيم بها أكثر من خمسة أيام حتى وافاه النبأ بأن الفرنجة قصدوا « جبلة » فاغتالوها ، فخرج مسرعا يجمع عساكره من هنا ومن هناك ، حتى وصل الى « ارتنطوس » فحاصرها وقهرها واستولى عليها ، ثم اتجه الى « جبلة » فاستولى عليها أيضا ، وتبعتها «اللاذقية» ورفع العلم الاسلامى عليها وظل السلطان يطهر البلاد والحصون من الفرنجة ، ويستولى عليها حصنا بعد حصن حتى كان اليوم الثالث عشر من رجب سنة ٥٨٥ هـ فبلغه أن الفرنجة قصدوا عكا فاتجه اليها ودخلها بغتة ليقوى بها قلوب المسلمين، ولكن الفرنجة تكاثروا، واستفحل أمرهم ، وتوالت عليهم الامدادات ، برا وبحرا حتى

---

(١) وقد ذكر أبو شامة فى كتابه الروضتين الكثير منها : جـ ٢ ص ٨٨ ·

استظهروا على الجماعة الاسلامية، وضايقوهم وأخذوا عكا عنوة (١)٠ وقتل فى هذه الموقعة زهاء ثلاثة آلاف مسلم ٠

وتتالت المعارك بعد ذلك بين السلطان « صلاح الدين » وبين الفرنجة ، غير أن جنده كان قد سئم الحرب ، وضاق بها ، فقويت شوكة الصليبيين ، ولذا استقر رأى السلطان « صلاح الدين » على الصلح ٠

وأبرم الصلح(٢) بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات تبدأ من اليوم العشرين من شعبان سنة ٥٨٨ هـ ، ٢ سبتمبر ١١٩٢ م فوضعت الحرب أوزارها لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر ، وفرق « صلاح الدين » عساكره ، وعكف على تنظيم البلاد واعادة بنائها فأصلح القدس(٣) ، وتفقد أحوال البلاد الساحلية ، ودخل «دمشق» ونشر جناح عدله ، وهطلت سحائب انعامه ، وأنشده الشعراء حتى وافاه أجله فى ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ فكانت وفاته دمعة فى كل عين ، وشجى فى كل حلق ، وأسى فى كل قلب ، مات رحمه الله تعالى عن سبع وخمسين سنة (٤) ٠

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنهم وكأنها أحلام (٥)

وانتهت بذلك صفحة مشرقة من صفحات الجهاد أمام الغزو الصليبى ٠

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٦ : ص ٤٥ ٠
(٢) الروضتين جـ ٢ ص ١٩٩ – ٢٠٠ ٠
(٣) الكامل لابن الاثير جـ ٩ : ٢٢١ ٠
(٤) الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاطا جـ ٢ : ص ٢٥٨ – ٢٥٩ ٠
(٥) المرجع السابق : ص ٢٢٦ ٠

الحروب الصليبية فى عهد خلفاء صلاح الدين
وموقف ابن سناء منها

١ ـ الملك العزيز عثمان

٢ ـ الملك الأفضل

٣ ـ انتقال الملك من أسرة صلاح الدين

٤ ـ الملك العادل

٥ ـ الملك الكامل محمد



٤

الحروب الصليبية في عهد خلفاء صلاح الدين وموقف ابن سناء منها

لم يكن تاريخ الأيوبيين منذ سنة ٥٨٩ هـ وهى السنة التى رحل فيها صلاح الدين من عالم الفناء الى عالم البقـــاء ــ حتى سنة ٦٤٨ هـ ، وهى السنة التى هلك فيها آخر ســـلطان أيوبى بمصر ــ لم يكن سوى قصة للمطـــامع الشــخصية ، والمؤامرات السياسية التى أشعلت نيران الحروب بين أبناء البيت الواحـــد الأيوبى ، فطمع كل منهم فيما فى يد الآخر ، ودفعه الحقد والغضب أحيانا الى أن يستعين بالصليبيين أو بالروم أعداء البلاد الألداء ، كما تفعل بعض الشراذم المغلوبة على أمرها اليوم فى التجائها الى الانجليز أو الفرنسيين يلتمسون منهما العون على اخوان لهم حين تعميهم مصالحهم الشخصية عن المصالح الوطنية الكبرى للبلاد ــ وقد استمرت الحروب بين الأيوبيين ما يزيد على ستين سنة ، ودخلت

الحروب الصليبية فى عهدهم مرحلة جديدة امتازت بأن ما أحرزه الصليبيون بالمفاوضات الدبلوماسية يفوق ما أحرزوه بالحروب(١).
وسوف نتتبع خلفاء مصر والشام فى هذه الفترة لتوضيح هـــذه الخلافات وموقف كل واحد من الصليبيين ، ثم موقف ابن سناء من ذلك .

الملك العزيز عثمـــان :

لقد حاول « صلاح الدين » أن يحسم الخلاف بين أبنائه بعد وفاته بتقسيم امبراطوريته العظيمة عليهم ، فآل أمر مصر الى ابنه الملك العزيز عثمان ، وكان مازال شابا لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره ، وكان فى مصر جل عساكر أبيه من الأسدية والصلاحية والأكراد ، وقد سولت له نفسه وزين له أتباعه من عساكر الصلاحية وقوادهم أن يستولى على دمشق من أخيه الأفضل وقد فر من بين عساكره الأسدية (عبيد أسد الدين شيركوه) وانضموا الى الملك الأفضل ، لأنهم كانوايؤثرونه ويفضلونه ، وبالطبع قويت الوحشة بين الأخوين ، ودبت عقارب الفتنة فى نفسيهما ، ولم يتهيأ للعزيز الاستيلاء على دمشق ، وقد سجل ابن سناء حادثة فرار الأســـدية سنة ٥٩٢ هـ فى قصيدة بلغت سبعة وأربعين بيتا مطلعها : —

من فـــر منـــك فمـــا يـــلام
وطريـــــد بأســـك ما ينـــــام

فجعلهم غلمة قد خافوا مقامه العظيم فلم يستقر لهم قرار ، ولم يطب لهم مقام ، وعجب الشاعر من فرارهم كالحمام على الرغم

(١) مصر فى عهد الايوبيين : والسيد الباز العرينى ١٠٧ .

من أنهم الأسود فليس لهم من صفة الأسدية غير الاسم وجعلهم فى شرودهم كالنعام ، ثم جعلهم لاينفعون ولايضرون ان مضوا ، أو ان أقاموا . فاستمع اليه يقول : ـ

فـرت لخوفـك غلمـة
ولطالما فـر الغـلام
خـافوا مقـامك ذا العـظ
يم فلم يـكن لهـم مقـام

وهـم الأسـود فمـالهـم
طـاروا كمـا طـار الحمام
ونعـم لهـم نعـم فـلم
شـردوا كمـا شـرد النعـام

لا ينفعـون ولـن يضـر
م وا ان مضـوا وان أقامـوا

وابن سناء فى مدائحه الملك العزيز تتمثل فى شعره حماسة الحرب التى طبعت أسلوبه ، وأثرت على فنه ، ولذا نراه فى هذه القصيدة ـ على الرغم من أن الخلاف كان بين الملك العزيز وأخيه الملك الأفضل ، وأن هؤلاء الأسدية الذين انضموا الى أخيه الملك الأفضل لم يكن انضمامهم بالطبع لأعداء البلاد من الصليبيين ، ـ يهيج حفيظته عليهم ، ويثير حقده ضدهم بروح لا تقل عن تلك التى كان يثير بها صلاح الدين على الصليبيين : ـ

ولـو انهـم تحت الرجـا
م لما أجنهـم الرجـام

أو فى الغمـــام لكـــان يمـــ
طـــرهم بســـاحتك الغمـــام

قم فامـــلك الدنيـــــا جميـــ
عـــا فلقـــد آن القيـــام

ورم الســـماء تنـــل كـــوا
كبهـــا فمـــا يغنى المـــرام

وشـــم الحسام فمـــا يشـــ
يم الذل ان شيم الحســام

فاحســـم به داء النفـــــا
ق فـــانه الـــداء العقـــام

فالأرض لا تجنهم ، والغمام لا يحميهم ، وفى قدرة العزيز أن يملك الأرض جميعا ، وأن يبلغ مرامه ولو كان فى السماء والحسام وحده هو الذى يستطيع به أن يحسم داء النفـــاق الذى دفع هؤلاء الى الهرب · وهى كما ترى روح مشبعة بالحماسة ، والشعر ملتهب لا يختلف فى درجة حرارته وقوة الدوافع فيه عن الشعر الحماسى الذى قيل فى صد الصليبيين ·

ولما انتهى أمد الهدنة التى كان « صلاح الدين » قد عقدها مع الصليبيين جددها العزيز مرة أخرى غير أنه فى سنة ٥٩٤ هـ جرت عدة مناوشات بين الفريقين ، وقد استطاع العزيز أن يخلص قلعة « تبنين » من أيدى هؤلاء الفرنجة ، ولذا نجد ابن ســـناء يشـــيد ببطولته ، ويسجل ذلك الانتصار فى قصيدته التى مطلعها : —

الشـــام للاســـلام دار القـــرار
وكـــان من قبـــل طريق الفـــرار

وقد بلغت هذه القصيدة ثلاثة وأربعين بيتا . وكان الفرنج الألمانيون قد وصلوا من المغرب متجهين الى الشام ، وحاصروا تبنين فأرسل الملك العادل الى ابن أخيه العزيز بمصر يطلب اليه أن يحضر بنفسه لحفظ الثغر ، فخرج العزيز بجيوشه ، ووصل فى الثالث والعشرين من ربيع الأول ، وكان الفرنج قد نزلوا أول صفر وقاتلوا من وجدوه في الحصن ، وكادوا يستولون عليه ، فلما أحسوا بوصول الملك العزيز ، واجتماع المسلمين رحلوا عنه . وفى ذلك يقول ابن سناء : —

جئت لتبنين (١) ومن حولها
قوم كأعداد الحصى للحصار

سدوا عليها الطرق حتى لقد
كادوا يسدون طريق القطار

ساق اليها الكفر أجناسه الـ
عظام قادتها الملوك الكبار

من كل من يزأر من غيظه
كأنه من مغرب الشمس نار

ثم يبين كثرتهم ، وأنهم سلكوا طريق البحر ، وطريق البر ، فملئوا البحر بسفنهم حتى لم يكد يظهر ماؤه ، وأحدقوا بعد ذلك بالثغر كأنهم الغل الذى يحيط بالعنق ، فهم : —

اما على البر أتى راكضا
أو بجناح القلع فى البحر طار

---

(١) تبنين : بلدة فى جبال بنى عامر تطل على بلدة بانياس بالقرب من دمشق (ياقوت جـ ١ ص ٨٢٤) .

وطبقــــوا البحر ســـفينا فمـــا
بان وســـاروا فوقهـــا فى قفار

وأممـــوا الثغـــر وطـــافوا به
وأحدقـــوا كالغـل لا كالســـوار

ثم وصف فرارهم ، وأنهم أصبحوا كالشرار المتطاير بعد أن كانوا جمرة متقدة عندما أحسوا بقدومه ، وانهزموا هزيمة منكرة صوب البحر لما رأوا بحر وغى يجتاحهم ، ولا يبقى لهم أثرا فكان العزيز كالنهار وكانوا هم كالليل الذى يراع عندما يهاجمه النور .. وتستروا بالليل لأن الوقت كان آخر الشهر العربى ولولا أن الليل أرخى عليهم ازاره لعجل فيهم العزيز حد سيوفه فأشبعهم من دمائهم، وتطاير رءوسهم . استمع اليه : ـ

وكان أهـــل الكفر فى جمـــرة
فعنـــدما أطللت طـــاروا شرار

وانهزموا للبحـــر اذ أبصـــروا
بحـــر وغى تغرق فيـــه البحار

وعذرهم اذ هـــربوا واضـــح
هل يثبت الليل أمام النهـــار ؟ !

أقســـم ما شـــدوا ازارا لهـــم
الا لأن الليـــــل مرخى الازار

لـــولا سرى القـــوم وتعجيلهم
عجلت فى القوم شـــقاء الشـــفار

لو لم يعق ســـيفك ماســـح من
هـــام مطير ســـح هام مطـــار

وقد مدح ابن سناء الملك العزيز بست قصـــائد أخرى لم نستطع أن نتعرف على تواريخها لأن ماورد فيها من مدح أوصاف عامة لاتحدد مناسبة ، ولا تشير الى أحداث ووقائع يمكن أن نستغلها فى معرفة التواريخ .

وقد تمكن العادل من الايقاع بين الأخوين الأفضل والعزيز ليشق لنفسه طريقا يحقق بها آماله ، وقد مكنته الظروف من ذلك كما سنوضح بعد قليل . وقد كان العزيز ميالا الى العبث واللهو حتى راح ضحية لذئب كان يطارده عند الفيوم فوقع من فوق جواده فى ٢٠ من المحرم سنة ٥٩٥ هـ مفارقا الحياة ، تاركا أمر مصر من بعده لابنه الأمير المنصور بن العزيز الذى لم يتجاوز العـــاشرة من عمره ، وأنى له أن يستمتع بملك مصر ، ومن ورائه عمه الأفضـــل ، وعم أبيه الملك العادل الذى لا يقف طموحه عند حد .

الملك الأفضـــل :

لما مات العزيز اجتمع رأى الأغلبية فى مصر على استدعاء الملك الأفضل ليكون وصيا على ابن أخيه المنصور ، وأيدهم القاضى الفاضل على هذا الرأى ، واشترطوا على الأفضل ألا يذكر اســـمه فى خطبة الجمعة ، وألا ينقشه على النقود ، وألا تتجاوز وصايته سبع سنوات ، وبقى الأفضل فى مصر فأصلح أمورها ، وقرر قواعدها وحسنت فى الناس سيرته فى مطلع أيامه . غير أن عمه الملك العادل اســـتطاع أن ينتزع منه مصر فى ١٨ من ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ .

وقد تتبعت قصائد ابن سناء التى مدح بها الأفضل فوجدتها احدى عشرة قصيدة احداها لامية ومطلعها : _

هـــــــواى لمحبــــــوبى الأول
فقصر من العـــذل أو طـــــول

ويدعوه فى هذه القصيدة الى العودة الى مصر ، ويبين تعلق المصريين به ، وتطلعهم الى عودته وحكمه العادل ، وفضله على أهلها فيقول : –

بكت مصر بالدم شـــــوقا اليك
وحنت الى حكمـــــك الأعــــدل

تنـــاديك عن كمـــد مســـرف
وتـــدعوك عن سقم معضــــــل

وكم لك فضـــــل على أهلهـــــا
فســـمتك بالأفضـــــل المفضــل

وقد جئت منها رســـــولا اليــك
فكن بالرجـوع لهـــا مرســـــلى

فأنت فتـــــاها ونعـــم الفتى
وأى فـــــتى كـــان الا عـــــلى

وقد وجه اليه قصيدة أخرى رائية مطلعها : –

ســـــافر فوجـــه العيد ســــافر
فلترجعن وأنت ظـــــــافــــــر

ولتظهـــــرن عــــــلى عـــــدو
ك ان حـــــزب الله ظـــاهـــــر

وفى هذه القصيدة يشير الى حياة الورع والزهد التى انصرف اليها الأفضل : –

كم ليـــــلة أحييتهـــــا
نـــام الأنـــام وأنت ســـاهر
لله فيهــــا قائمـــا
وعــلى ســـواك الكـــأس دائر

ولهذا نرجح أن تكون هذه القصيدة قيلت حوالى سنة ٥٩١هـ اذ أن انصرافه عن اللهو ، وترك الملذات كان فى هذه السنة ٠

وقد أوضحت فى الفصل السابق أن الصلة قد توطدت بين الشاعر وبين الأفضل حتى أن الأفضل استدعاه الى سوريا كمـــا يفهم ذلك من قصيدته التى مطلعها : ـ

قمر بات بين ســـحرى ونحرى
وخيـول الـدموع باللثم تجـرى

وفيها يقول :

هو فى الدســـت جالس وعطـايا
ه الى الخـــلق والأقـــاليم تسرى
أنــــا ممن سرت اليـــه وجـازت
كل بر وجـــاوزت كل بحـــــر
طرقتنى فى كل ليـــل بصـــبح
وأتتنى فى كـــل عسر بيســـر
جل مقـــدار ذكـــره لى على البعـ
ـد لقـــد جـــل فى البرية قدرى

وفى قصيدة أخرى دالية مطلعها : ـ

عاد قلب المشوق اذ عـــدت عيده
ووفى وعده ووافت ســــعوده

وقد أشارت بعض نسخ الديوان الخطية الى أن هذه القصيدة مدح بها الشاعر الملك العزيز ، ولكن الظاهر أنهـــا فى مدح الملك

الأفضل لأنه يشير فى أحد أبياتها الى الجفوة التى كانت بين الأفضل وأخيه العزيز فيقول : ـ

خمـــدت نار من عصـــاه ونور الـ
ـدين هيهـــات ليس يخشى خموده

بعـــده لا عصـــاه عـــاص ولا يخـ
ـفق فى الخافقـــين الا بنـــوده

و « نور الدين » هو لقب الملك الأفضل ، وقد أشار فى هذه القصيدة الى حياة التنسك والزهد : ـ

مـــلأ الليـــل بالتهجـــد حتى
فاض عنـــه ركوعـه وسجوده

والمعروف أن الملك العزيز كان ماجنا عابثا ، ولم ينصرف الى العبادة والزهد ، ولكن الأفضل هو الذى انصرف اليهما • وربمـــا كان الشاعر قد أعد هذه القصيدة ليمدح بها العزيز ، فلمـــا حضر الأفضل الى مصر بعد موت العزيز غير الشاعر بعض أبياتها وزاد عليها ثم وجهها الى الأفضل •

ولم يدم حكم الأفضل طويلا فى مصر فسرعان ما حل العـــادل محله ، وغادر الأفضل مصر ٥٩٦ هـ حيث قضى بقية حيـــاته فى التقشف والزهد ، ولا نظن أن الشاعر قد وجه اليه أية قصـــيدة اذ أنه لا يكن أى تقدير للنجوم الآفلة •

انتقال الملك من أسرة صلاح الدين :

لما قبض العادل على زمام الأمور فى مصر عمل على أن يقضى على ملك أبناء أخيه ، ويمكن لنفسه ولأولاده من بعده على نحو ما فعل « صلاح الدين » ، فقسم الملك بين أبنائه واحتفظ لنفسه بنوع من

السيادة العليا ، فأصبح ابنه الكامل أميرا على مصر وابنه المعظم عيسى امتدت امارته من العريش الى حمص ، كما تولى الأشرف موسى البلاد الشرقية .

ولكن البلاد فى عهده لم تسلم من غارات الصليبيين وافسادهم ونهبهم ففى سنة ٦٠٠ هـ تعرضت مدينة « فوة » احدى البلاد المصرية لغارة مفاجئة من أسطول الفرنج ، فأقاموا بها خمسة أيام يسبون وينهبون ، وعساكر مصر مقابلهم ، وقد صالحهم العادل من جديد ، وجدد الهدنة لخمس سنوات أخرى بعد انقضاء الهدنة الأولى وأعطاهم بعض البلاد ، وشجعهم ما بين الأمراء والملوك المسلمين من تفكك أن يعيثوا فى الأرض فسادا ولكن الشعب العربى بعامته وفلاحيه خرجوا للقائهم بعد أن فر القواد والأمراء فهزموهم هزيمة منكرة .

وقد تعرضت البلاد فى عهد العادل لهزة اقتصادية عنيفة فكثرت الأوبئة والمجاعات ، وقل النيل ، ولم تستطع الحكومة أن تتصرف فى مياهه لانعدام الوسائل العلمية ، وانصراف الفلاح عن العناية بأرضه ، وتعسف بعض الحكام ، وكانت أشد المجاعات فتكا فى مصر سنة ٥٩٧ فقد هرب الناس ، وانعدمت الحبوب ، واشتد البلاء ، وكتب العماد الأصفهانى فى ذلك يقول : — « اشتد الغلاء وامتد البلاء ، وتحققت المجاعة ، وتفرقت الجماعة ، وهلك القوى فكيف الضعيف ، ونحف السمين فكيف العجيف ، وخرج الناس خوف الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر فى الأمصار ، ولقد رأيت الأرامل على الرمال ، والجمال باركة على الأحمال ، ومراكب الفرنج واقفة على ساحل البحر على اللحم ، تسترق الجياع باللقم »(١) .

---

(١) مرآة الزمان جـ ٨ : ٤٧٧ .

موقعة دمياط :

وفى سنة ٦١٤ هـ ١٢١٨ م تدفقت جموع الصليبيين الى «عكا» استجابة لملك روما الذى كان ذا مكانة عظيمة بين ملوك أوروبا ، وتمكنوا من نهب البلاد وأسر ما لا يحصى سوى ما قتلوا وخربوا وأحرقوا(١) . ثم ارتحلت الجنود الصليبية فى سفن صوب مصر ، وفى صفر سنة ٦١٥ هـ ألقى الأسطول الصليبى مراسيه أمام دمياط على الشاطىء الأيسر للنيل ، وبذلوا كل جهد مستطاع ليتغلبوا على برج السلسلة ، ودام حصارهم أربعة أشهر ، وقد استطاع الملك الكامل أن يثير فى نفوس حامية دمياط روح الجهاد والحماسة الدينية حتى خسر الصليبيون كثيرا من أسلحتهم ، ولجئوا الى اقامة برج ضخم من الخشب نصبوه على سفينتين يصل بينهما جسور وحاملات ، وبهذا الحصن المتحرك استطاع الصليبيون أن يستولوا على برج السلسلة ، فلما ملكوا برج السلسلة قطعوا السلاسل لتدخل السفن من البحر الى النيل ، ويتحكموا فى البر فقطع الكامل عليهم غرضهم باقامة جسر عظيم فى النيل ، ولكنهم قاتلوا عليه قتالا شديدا حتى قطعوه ، فأغرق الملك الكامل بعض السفن الكبيرة فى النيل حتى سدت عليهم الطريق ـ فما أشبه الليلة بالبارحة ـ وما أشبه ما حدث فى قناة السويس بما حدث منذ ثمانية قرون تقريبا ، وجرت محاولات لم يظفروا من ورائها بطائل غير أن الملك العادل لما بلغه سقوط برج السلسلة فى يد الصليبيين حزن حزنا شديدا عجل بوفاته فتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ . وقد تتبعت قصائد ابن سناء التى اشتمل عليها الديوان فى مدح الملك العادل فوجدتها ثمانى قصائد واحدة منها دالية مطلعها : ـ

---

(١) الكامل جـ ٩ : ٣١٥ .

على كل حال ليس لى عنك مــذهب
وما لغرامى عند غـيرك مطلب

ويبدو أنه مدحه بها بعد سنة ٥٩٧ هـ أى بعد انتهاء القحط وعودة مياه النيل لأن الشاعر قد تحدث عن ذلك وجعله هو الذى أعاد النيل للبلاد : –

أعــدت لأهل النيـــل رى بلادهم
بأبحر نيـــل عندها النيـــل مذنب

هنيئــــا لمصر وصله ووصــــوله
فقـــد كان يؤذى مصر منه التجنب

وقد مدحه بقصيدة جيمية مطلعها : –

سجاليل همى بالعذار الذى ســجا
وعرج قلبى نحـــوه حين عرجـــا

وكانت هذه فى حياة صلاح الدين ، وقد مدحه فيها بالبطولة والقوة فى مجالدة الأعداء ، ونزالهم ، وذلك لأن العادل كان كثيرا ما تسند اليه قيادة الجيوش لاخماد الفتن ، أو فى ملاقاة الصليبيين، ولذا فهى من القصائد الحماسية : –

يجر جيوشـــا يركد النقع بينهـــا
فلم يلق من بين الأســـنة مخرجـــا

وان أظلمت من نقعـــــه جنبـــاته
فكم صبح سيف بينــه قد تبلجـــا

وما هو جيش مثل ما يزعم العـــدا
ولكنـــه بحـــر الحـديد تموجـــا

وما ذاك لمع للـــدروع ولا الظبى
ولكنـــه جمر العزائم أججـــا

غـــدا سيف سيف الدين خدا موردا
وان كان ثغرا بالفـــلول مفلجـــا

وكل القصائد الأخرى التى مدحه بها قد قيلت بعد توليته أمر البلاد وتخلصه من منافسيه ، ومدحه فيها بالكرم والقوة فى مجالدة الأعداء ، والقدرة على التغلب على الأعداء ، والدهاء والمكر الى غير ذلك من الصفات التى ترسم وتحدد معالم شخصية العادل، وبعض هذه الأوصاف صريح واضح، وبعضه يفهم من بين السطور٠٠ ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة الديوان ٠

الملك الكامل محمد :

كان الملك الكامل محمد مشغولا بلقاء الصليبيين فى دميـــاط لما بلغه نبأ وفاة أبيه الملك العادل ، وكان من الممكن أن يتبدد خبر هذه الوفاة فى حماسة الحرب والدفاع عن البـــلاد لولا ما دبره « ابن المشطوب » أحد أمراء الأكراد من الاطاحة بالكامل وتوليـــة أخيه الفائز مكانه ، فلما بلغ الكامل خبر هذه المؤامرة نسى كل شيء عن الجهاد وعن الدفاع وسارع ليقضى على المؤامرة الأثيمة فأصبح الفرنجة فلم يجدوا أمامهم من المقاتلة أحدا ، اذ أن العسكر حين علموا بفقد سلطانهم وذهاب قائدهم تفرقوا أيدى سبا ، وركب كل منهم هواه ولم يقف الأخ على أخيه ، ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم الا القليل ، وتركوا ما بقى فوقعت الأســـلحة والذخائر ، كما وقعت دمياط أيضا فى أيدى الصليبيين صـــفوا عفوا ، بغير تعب ولا مشقة ، اللهم الا ما بذله أهل دمياط من جهد ومقاومة لم تغن عنهم شيئا أمام العدد والعدد فكثر فيهم القتـــل

والجراح والامراض ، وسلموا البلد فى ٢٧ من شعبان سنة ٦١٦ هـ (١) .

استرداد دمياط : وقد شرع الصليبيون فى تحصين دمياط وعمارتها بعد استيلائهم عليها حتى أصبحت منيعة لا ترام ، وقتلوا من أهلها ما شاءوا ، ونهبوا من أموالها كل ما استطاعوا ، ثم بثوا سراياهم فى البلدان المجاورة يقتلون وينهبون ويأسرون .

أما الملك الكامل « محمد » فقد أرسل الى أخويه ، والى ملوك الاسلام يستنجدهم ويستغيث بهم (٢) ، وسرعان ما وجدت دعوته مكانا فى نفوس ملوك الاسلام ، وتناسوا ما بينهم من الأحقاد والخصام ، وتتابعت النجدات الى الكامل ، وبعد أن كان يسعى حثيثا للصلح مع الفرنجة ، ويعرض عليهم أن يتخلوا عن دمياط على أن يستولوا على « بيت المقدس » و « عسقلان » و « طبرية » و « صيدا » و « جبلة » و « اللاذقية » وجميع ما فتحه صلاح الدين (٣) ، والصليبيون يغالون ويغالبون ، ويمكرون ويرفضون اضطر الى مقاومتهم ومصابرتهم ، وأقام الاستحكامات عند المنصورة ، وتقدم الفرنج وقت الفيضان صوب معسكر الكامل واتخذوا طريقهم بين الترع ، فقطع الكامل عليهم الجسور ، ففاضت المياه ، وحصر الصليبيون ، وضاق بهم المقام ، وراموا العودة فلم تمكنهم الارض المبللة من السير فيها ، وفت ذلك فى عضدهم .. ووقعت النجدات والسفن القادمة لعون الفرنج فى أيديهم ، فلما تيقنوا أن المنايا قد كشرت عن أنيابها ، ذلت نفوسهم ، وتنكست صلبانهم ، فطلبوا الصلح من الكامل على الجلاء من دمياط بلا قيد

---

(١) مصر فى عصر الصليبيين : ١١٤ .

(٢) الكامل : جـ ٩ : ٣١٤ — ٣١٨ .

(٣) الكامل : جـ ٩ : ٣١٤ — ٣١٨ .

ولا شرط ، وتم النصر للمصريين ، وقدمت التهانى للملك الكامل من الشعراء . وجلس الكامل محمد واخوته بعد رحيل الفرنج عن دمياط مجلس أنس بمدينة المنصورة (١) فأمر الملك الأشرف موسى جارية له يقال لها (ست الفخر) فغنت على عودها هذه الأبيات : —

ولما طغى فرعون عكـــا ببغيــــه
وجاء الى مصر ليفسد فى الأرض

أتى نحوهم موسى وفى يده العصا
فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف طربا عظيما وقال لها كررى فشق ذلك على الملك الكامل وأمرها فسكتت ، وقال لجاريتـــه هو « غنيه أنت » فغنت على العود : —

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا
لما قد جرى فى وقتنـــا وتجـددا

أعبـــاد عيسى ان عيسى وقـــومه
وموسى جميعـا ينصرون محمـــدا

فطرب الملك الكامل وأمر لها بخمسمائة دينار ، ولجارية أخيه الأشرف بمثلها ، وتوافد الشعراء يهنئون الملك الكامل بالنصر ، ومنهم « شرف الدين بن عنين » ومن قصيدته قوله : —

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنـا
اذا جهلت آباءنا والقنــــا اللدنا

---

(١) الادب المصرى : د . عبد اللطيف حمزة ٨٣ .

غداة التقينا دون دمياط جحفلا
من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا

كما مدح « كمال الدين بن النبيه » الشاعر المصرى الملك الأشرف موسى بقصيدته الطويلة التى منها : —

للذة العيش والأفراح أوقات
فانشر لواء له بالنصر عادات

أمام جيشك أنى سار أربعة
نصل ونصر وآراء ورايات

وتحت غيل القنا آساد معركة
لها ثبات وفى الهيجاء وثبات

ومن الشعراء كذلك « البهاء زهير » وقد بعث لملوك الأيوبية وهم بالمنصورة قصيدة رائعة منها : —

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر

فقد أصبحت والحمد لله نعمة
تقصر عنها قدرة الحمد والشكر

يقل لها بذل النفوس بشارة
ويصغر فيها كل شىء من النثر (١)

ألا فليقل ما شاء من هو قائل
ودونك هذا موضع النظم والنثر (٢)

---

(١) النثر : هو النثار وهو ما ينثر على العروس من الذهب والفضة .

(٢) الادب المصرى للدكتور عبد اللطيف حمزة : ٩٠ .

وبالطبع ليس لابن سناء فى هذا المقـــام شيء اذ أنه كان قد واراه الثرى قبل هذه الحادثة بعشر سنوات ، ولكنه كان قد مدحه قبل ذلك ، وأشاد ببطولته فى الحوادث التى تعرضت لها البلاد فى اعتداء الصليبيين سنة ٦٠٠ هـ بقصيدة مطلعها : ـ

على خاطرى يا شغله منـــك أشغال
وفى ناظرى يا نوره منـــك تمثـــال

وقد أشار الى بطولته وصولته فى وسط المعارك ، وقتـــل أعدائه بالرعب والذعر فقال : ـ

بأســـيافه فى الحرب يخترم الوغى
وتقتل اقيـــال وتبطل أبطـــال

جنى عســـل الفتح المبين برمحـــه
ولا غرو أن اسم الردينى عســـال

له صولة الرئبال فى مائس القنـــا
ولا ريب أن ابن الغضنفر رئبـــال

اذا صال فى يوم النزال تفصـــلت
لأعـــدائه بالرعب والذعر أوصال

ويعول جرح القرن منــــه كأنمـــا
به صوت ضرب السيف للجرح أعوال

ويطربه صـــــوت القـــراع وانه
له طربات وهـــو للقـــوم أهـــوال

وليس له بعد هذه القصيدة سوى أبيات يعتذر له فيهـــا عن توليه ديوان الجيش والاشراف عليه :

قد عجـــز الملوك عن خـــدمة ثبـــاته فى مثلهــــا طيش
للجيش ديـــــوان ومـــالى به أنس ولا عنــــــدى له عيش
وصرت مهزوما فلا تعجبـــوا من واحـــد يهـــزمه الجيش

◆ ◆ ◆ ◆

ومن الذين حظوا بمدح ابن سناء من أبناء البيت الأيوبى الملك المعظم « تورانشاه » فقد مدحه الشاعر بقصيدة واحدة مطلعها : —

تقنعت لـــكن بالحبيب المعمم وفارقت لكن كل عيش مذمم

وقد أثار هذا المطلع ضجة النقاد فمنهم من هجنوا التقنع بالحبيب ، ومنهم من دافع عنه ، وقد جعل منها ثلاثة وعشرين بيتا للغزل ثم حشدها بالاشارات الأدبيـــة والتعبيرات الغزلية التى استعملها الأقدمون ، ثم مدحه بالمألوف من الصفات ولكن فى ثوب خاص به فهو المعطى الممالك مجدا صميما ، وملوك البرايا يخرون له رهبة ، ويسجدون فى حضرته ، ويلثمون الأرض بين يديه حتى تظهر أثر مباسمهم عليهــــا ، وقد غدا ينصر بالرعب حتى ليحمى بأسه حماه ، وان سمعته اذا تعوذ بها الطير أمن شر اعتداء النسور الكاسرة عليه ، وقد أرهب الكفار ، وأمن فى ظله الاسلام ، وقد تعلم السيف منه العزم والحزم ، ودروع الأعداء لا تحميهم من سهامه بل انها لتصير مثل البرود تمرق فيها سهامه فى يسر وسهولة ، واذا صاد غيره الغزلان فهو لا يصيد غير الضياغم ، وركض الخيل عنده نوع من الاستراحة ولبس الدرع نوع من التنعم ، وأجمـــل ما يتطيب به نقع المعارك ، وألين مهاد له ظهر خيله وابله ، وكثيـــر من أهل الصليب اذا رأوه أسلموا • وهى قصيدة حماسـية تمجـــد البطولة ، وتشيد بالعزم والحزم الذى اتصـــف به الملك المعظم

« تورانشاه » أخو صلاح الدين وقد بلغت هذه القصيدة سبعة وخمسين بيتا . جاء فيها قوله : ـ

غدا بأسه يحمى حماه وقد غدا
به الدهر منه يستعيذ ويحتمى

فلو ذكرته الطير أو سمت اسمه
لما راعها فى جوها بأس قشعم

أخو فتكات لا تزال سيوفه
تخط سطور النصر فى جبهة الكمى

فقد أرسلت حتفا الى كل كافر
وقد أرسلت فتحا الى كل مسلم

وأصبح يعدى السيف تصميم عزمه
فمن ذا يسمى بالحسام المعمم

وأسهمه فى صد كل مدرع
فما الدرع منها غير برد مسهم

ويحتمل أنه وجه اليه هذه القصيدة بين سنة ٥٧٤ الى ٥٧٦ هـ اذ أن ذلك هو الوقت الذى استقر فيه تورانشاه فى الاسكندرية وظل حتى مات سنة ٥٧٦ هـ .

وبعد : فقد استعرضت فى هذا الفصل موقف ابن سناء من الحروب الصليبية التى جرت فى عهد خلفاء صلاح الدين ، وتعرضت لبعض الشخصيات الايوبية التى مدحها ابن سناء الملك ، وقد وجهت اهتمامى لابراز الناحية الحماسية فى شعره التى خلقتها الحروب

الصليبية .. وحقا ان له مدائح أخرى وجهها الى شخصيات لمعت آنذاك فى الحروب الصليبية مثل الظاهر غازى ، والمظفر تقى الدين ، ولكنها لا تختلف كثيرا عن تلك القصائد التى تعرضت لها فى منهجها ولا فى الصفات التى كان يغدقها على ممدوحيه .

وسوف أخص الفصل القادم بالحديث عن أغراض شـــعره الأخرى التى تحدث فيها ، حتى تتضح صورة ابن سناء الشاعر فى ذهن القارىء .

شعر ابن سناء الملك

أغراض شعره :

١ ـ المدح

٢ ـ الغـزل ٠

٣ ـ الرثـاء ٠

٤ ـ الهجـاء ٠

٥ ـ الوصـف ٠

٦ ـ الفخـر ٠

٧ ـ الزهـد ٠

٨ ـ الاعتذار والاستعطاف ٠

٩ ـ الحكمة ٠

٥
شعر ابن سناء الملك

الأغراض التى تعرض لها :

١ ـ المدح :

من تتعبنا لديوان ابن سناء نرى أن ما اشتمل عليه من الشعر يقرب من ثمانية آلاف بيت • خص المدح منها ما يقرب من خمسة آلاف وهو ما يزيد على نصف الديوان ، ثم تلاه ما يقرب من ألف بيت فى الغزل والمجون ، وهذان هما الغرضان الرئيسان فى الديوان ، وقد ظهر الى جانبهما أنواع أخرى من شعره كالرثاء والهجاء ، والفخر ، والحكمة والوصف ، والزهد ، والاعتذار والشكوى •

وقد تأثر ابن سناء تأثرا واضحا بالحروب الصليبية ، وانعكس فى شعره أثرها فأدى دوره فى معركة التحرير ، وكانت له حظوة

وأثرة عند السلاطين والوزراء والأمراء ، وطبع بطابع الحماسة والبطولة فيشيد بجهاد السلاطين وبطولتهم ، ويدفعهم الى خوض المعارك ، ويبدى مهارتهم فى الضرب بالسيف والطعن بالرمح . وقد تقدم من النماذج ما يؤيد ذلك .

٢ ـ الغزل :

أما غزله فقد استطعت أن أقسمه ثلاثة أقسام أولها : غزل تقليدى (نسيب) خالص نهج فيه منهج الأقدمين ويتجلى هذا الاتجاه فى مطالع مدائحه ـ التى كانت مظهرا عاما لدى شعراء هذا العصر ـ ويتحدث فى هذا النسيب عن الأوصاف القديمة المألوفة كالوصال والهجر ، والوشاة والعاذلين ، والقد السمهرى ، والثغر الأقحوانى ، والطيب والنشر ، وصورة البدر واشراقة الشمس ولكن فى روح مصرية يتجلى فيها الخفة وروعة الافتنان ، وحسن السبك ويسرف ابن سناء فى هذا النسيب فتبلغ مطالعه أحيانا الثلاثين بيتا ، حتى لنظن أنه هو الغرض الأساسى . استمع معى الى مطلع قصيدته فى مدح القاضى الفاضل : لقد بدأ الحديث عن ليلة الوصل التى هى أحلى ليالى العمر ، والتى مضت مسرعة فأحس بها قصيرة ولم يملك الا أن يتمنى بقاء النجم ، وعدم قدوم الصبح من سفره فقال : ـ

يا ليلة الوصل بل يا ليلة العمر
أحسنت الا الى المشتاق فى القصر

يا ليت زيد بحكم الوصل فيك له
ما أطول الهجر من أيامه الأخر

أو ليت نجمك لم تقفل ركائبه
أو ليت صبحك لم يقدم من السفر

أو ليت لم يصف فيك الشرق من غبش
فذلك الصفو عندى غـــاية الكدر

والقسم الثانى : غزل عفيف رقيق : يفيض عذوبة ورقة ، وينساب فى يسر وسهولة ، ويتجاوب فيه مع مشاعره وعواطفـــه يغترف فيه من بحر ، ويصقل ما ينحته من صخر ٠٠ انه يحكى نبضات قلبه ولوعة نفسه ، وفيض احساسه استمع الى قوله : ـ

أواصـــل اللثم من فرع الى قدم
وأوصل الضم من صـــدر الى كفل

وبات يسمعنى من لفظ منطقـــه
أرق من كلمى فيـــه ومن غـــزلى

وددت أعضائى أسماعا لتســـمعه
ولو تحملن فيه وطـــاة العـــذل

ودمعة الدل تجريهـــا على جســدى
فهل رأيت سـقوط الطل فى الطلل

ونلت مـــا نلت ممـــا لم أهم به
ولا ترقت اليــــه همـــة الأمـــل

ومر والليـــل قد غارت كواكبـــه
لما نوى الصبح تطفيلا على طفـــل

لم أسحب الذيل كى أمحو مواطئـــه
لكننى قمت أمحـو الخطو بالقبـــل

يا ليـــلة قـــد تولت وهى قائلة
لا تنظمنى مـــع أيامـــك الأول

فهذه المعانى الرقيقة التى تحكى تلك التجربة الذاتية تنساب فى خفة ورشاقة زادتها العبارات والقوالب الفنية روعة وسحرا ، فما أحلى هذه الموسيقى التى تنساب من حروف الصفير فى الكلمات والعبارات : « يسمعنى ـ من لفظ ـ غزلى ـ أسماعا ـ لتسمعه ـ العذل ـ جدى ـ سقوط » لقد تكررت السين والزاى والدال والظاء والصاد وتوالت فانبعثت منها نغمات موسيقية راقصة ، فضلا عن الايحاءات الجميلة التى تستتبع تلك التعبيرات الحلوة ، فكل ثغرة من ثغرات جسمه يود أن تكون أذنا لتنعم بحديثها ، فكأن حديثها هاروت ينفث فيه سحرا ، وهذا جسده يذوب بين يديها فلا يبقى منه الا طلل بينما تشتعل روحه وتتوهج نفسه ، وهذه دموع الدلال تتساقط على جسده المتهالك فلعله كان يفترش صدرها ، أو يضع رأسه على ساقيها فتتساقط دموعها على جسده ، انها لوحة فنية انه اندماج الأرواح ، فليست متعة جسدية فحسب ، ولكنها متعة روحية ونفسية معا لذا لم تزل تلك المتعة بزوال أثرها ، فما زال يذكر تلك السعادة بعد ذهاب صاحبته ، وكان حريصا على استبقاء تلك الذكرى فوجدها جديرة أن ينحنى على الأرض ويلثم خطواتها التى تركت أثرا فوقها .. « لكننى قمت أمحو الخطو بالقبل » .. وهذه ليلة العمر لذا لا ينبغى أن تحسب مع الليالى الأخريات .

ومما زاد العبارات جمالا وروعة هذا الانسياب الذى يتمثل فى حروف المد التى زادت عدتها فى هذه الأبيات « أواصل ـ الى وأوصل ـ وبات ـ يسمعنى ـ منطقه ـ كلمى ـ غزلى ـ أعضائى ـ أسماعا ـ لتسمعهو ـ .. » الخ . ان حروف المد وتواليها فى هذه الأبيات أكسبها حلاوة وطلاوة ، وزاد فى جمال النغم الموسيقى الذى ينبعث عنها ، وهى توحى بالتعلق والرغبة واللذة حتى ليود ألا تنتهى الكلمة ذات الدلالة على المعنى .

والعاشق المتيم يجد صدى هذه الأبيات فى نفسه ، ويحس بالترجمة الصادقة لما ينطوى فى قلبه ، وتزيده تعلقا بها ، وتكرارا لها اذا كان قد مر بهذه التجربة ، فأمضى ليلة سعيدة مثل هذه الليلة مع من يهوى أو من يعشق .

القسم الثالث : غزل فاحش وتهتك سافر :

وقد كثر هذا اللون فى شعر هذا العصر لانتشار الشذوذ الجنسى ، حتى أصبح اللون المفضل الذى يجـــذب أنظار القارئين ويرجع ذلك الى كثرة سبى الحروب الصليبية ، ووجود الغلمان من الترك والأكراد وهم صباح الوجوه ، وانتشار البطالة والفراغ لدى بعض الناس . وكان ابن سناء واحدا من شعراء عصره ، استهتر كما استهتروا ومجن كما مجنوا ، فتغزل بالمذكر ، وتغزل بعمياء ، وتغزل بشائب ، وتغزل برومى أعجمى — وهو فى هذا كله يثبت للشعراء أنه يستطيع مجاراتهم ، ولا يعز عليه غرض من الأغراض . واستمع اليه يتغزل فى عمياء : —

ان الكمـــال أصـــاب فى محبوبتى
لمـــا أصـــاب بعينه عينيهـــا
زادت حلاوتهـــا فصرت تخالهـــا
وســــنى وقد كسر الكرى جفنيها
وكـذا علمت وللدبيب حـــلاوة
فـــكأننى أبـــدا أدب عليـــها
ولئن عدمت السكر من الحاظهـــا
فلقـــد وجـدت السكر فى شفتيها

وقد صرح كثيرا بما يستقبح ذكره ، وديوانه ذو حظ عظيم من المجون والاستهتار ، والتصريح بأعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، مما لا يجمل ذكره هنا .

٣ ـ الرثاء :

وقد بلغت قصائد الرثاء فى ديوانه ثلاثة وعشرين قصيدة ، وقد وزع هذه القصائد بين أهله كأبيه وأمه وجده وبعض أقاربه من جهة ، وبين أصدقائه الذين لم تربط بينه وبينهم المطامع والأهواء كعفيف التلمسانى ، والسيد شريف أبى القاسم عبد الرحمن الحلبى، وصديقه وثاب ، وبين جاريته التى أحبها من أعماقه ، وبذل النفس والنفيس لانقاذها من مخالب الموت من جهة أخرى ، كما أن بعض قصائده كان عزاء ومجاملة كعزائه الأسعد بن مماتى .

ومن قصائده فى الرثاء تلك القصيدة التى رثى بها أمه ومطلعها :

صح من دهرنا وفاة الحياء فليطل منكما بكاء الوفاء

وهى قصيدة تبلغ تسعة وتسعين بيتا ، وفى هذه القصيدة يضيق صدره ولا ينطلق لسانه فيقول : —

أنت عندى أجل من كل تأبين صغت بالثريا رثائى

فى ضميرى ماليس يبرزشعرى لا ولو كنت أشعر الشعراء

ثم يخاطب القبر ويناجيه فيقول : —

وإذا ما دعوت قبرك شوقا
فبحقى ألا تجيبى ندائى

هل درى القبر ما حواه وما أخـ
ـفاه من ذلك السنى والسناء

فلكم شف باهر النور منه
فرأيت الاغضاء فى اغضائى

ثم يقول : ـ

اذكريني يوم القيامة يا أم
م لئلا أعـــد فى الأشقياء

واشفعى لى فجنتى تحت أقدا
مك من غير شبهة وامتراء

فقريبا لا شـــك يأتيك عنى
بقدومى عليك وفد الهنـــاء

عجل الله راحتى من حياتى
انهـــا فى الزمان أعظم دائى

واذا ما الحياة كانت كمثل الدا
ء كان الممـــات مثـــل الدواء

ومن دراستنا لرثائه نستطيع أن نصل الى خصائص هذا الفن عنده ٠

١ ـ يتجلى الحزن الحقيقى ، والأسى العميق فى رثاء أقربائه الأدنين فيتجاوب فيه مع واقعه النفسى ، وان خالفه التوفيق فى التعبير أحيانا ٠

٢ ـ وحين يرثى أصدقاءه تحس بجو الأسف والحزن الفكرى الهادىء الرزين ٠

٣ ـ كما ينبعث من العزاء جو المواساة والتصبر والسلوان ، وهو مخالف حتما لجو الحزن والأسف ٠

٤ ـ يختلف معجمه اللغوى باختلاف المرثى ففى أقربائه ألفاظ حزينة وعبارات باكية ، صادرة من قلب باك حزين ، وفى أصدقائه ألفاظ رزينة ، وعبارات هادئة صادرة عن عقل وتأمل ، وفى رثاء

جاريته ألفاظ وعبارات ملتاعة فيها الحركة ، وأستعذاب الألم ، وفى العزاء ألفاظ السلوان وعبارات التصبر ، والعبارات متجاوبة مع ما توحيه المجاملة ·

٥ ـ ينعكس على أسلوبه أثر الثقافة والقراءة ، كما تجلى فى رثاء أمه حين استبد به بكاء الأطلال والدمن ·

٤ ـ الهجاء :

لم يعد النقاد قديمهم وحديثهم « ابن سناء الملك » من شعراء الهجاء ، وذلك لمكانته الاجتماعية من ناحية ، ولقلة أهاجيه التى اشتمل عليها الديوان من ناحية أخرى · وحقيقة لم تزد مقطعاته وقصائده عن مائتى بيت ، غير أننى أعده من الهجائين ، أو أن فى مقدوره وفى استعداده الخفى ما يجعله فى عدادهم ، فلا تنقصه سلاطة اللسان وحدته ، ولاتعوزه القدرة على السخرية والاستهزاء ، كما أن له قدرة على النقد الاجتماعى اللاذع ، وهو وان لم يبلغ بأهاجيه مبلغ جرير والفرزدق، ولا بتصويره الساخر (الكاريكاتيرى) مبلغ ابن الرومى الا أنه جاراهما بل وفاقهما ذرابة لسان ، وقدرة على الشتم والسباب · استمع اليه يطعن فى شرف شخص يسمى الرضى فيتهمه بأنه كان يقود على نفسه فأصبح يقود على زوجته ، ويشبهه بالتيس الذى يستعير قرنين من نعجته فيقول :

فكان يقود على نفسه ... فصار يقود على زوجته
وكيف يغار على عرسه ... فتى لا يغار على مهجته
ولا بأس بالتيس أن يستعيـ ... ـر قرونا على الرأس من نعجته
فأشبعنا الله من هجوه ... وجوعنا الله من عجته

٥ ـ الوصف :

لم تتجاوز أبيات الوصف فى ديوانه مائة بيت الا قليلا ومع هذا فقد وصف البستان ، ووصف القصر ، والفرس ، والجلنار ، والسوسن ، كما وصف الجرب الذى أصابه ، ومنظرته الجميلة ووصف قوما سكارى ، ووصف جارية صافية السواد واستمع اليه ينسجم مع الطبيعة ويتجاوب مع نفسه تجاوبا تاما فى هذا المقطع عن بستانه حين هاج الذكريات فراح يقبل الطل ويلثم الزهر ، وكأنه ينال ذلك من لمى المحبوب وثغره ، حتى كأن أصحابه بين لائم وبين عاذر فيقول :

جلست ببستان الجليس وداره
فهيج لى مما تناسيته ذكرا

أقبل ذاك الطل أحسبه اللمى
وألثم ذاك الزهر أحسبه الثغرا

وكم لائم لى فى الذى قد فعلته
وكم قائل دعه لعل له عذرا

ووصفه بصفة عامة وان كان قليلا الا أنه يدل على قدرته واستعداده الكامن القوى للنبوغ فى هذا الغرض ٠

٦ ـ الفخر :

ليس له فى الفخر سوى قصيدتين ٠ أولاهما عاتب فيها الدهر لأنه يحاول صده عن مطلبه ، ويصطنع له العقبات ثم يفتخر بآبائه، وبانتسابه الى والده الرشيد الذى فاق به الأنام لعلو منصبه ونصابه ، حتى أنه يستطيع بفضل ذلك النسب أن يتخذ من النجوم له نعلا ، ومن الهلال مركبا يجرى به فى نهر المجرة فيقول :

أيدفعني الدهر عن مطلبي ويكثر من لومه المطل بي
ولم يدر أني كثير الاباء وأن الرشيد المرجى أبي
وأني به قد فخرت الأنام بفضل النصاب مع المنصب
وأني لو شئت من سعده لأنعلت رجلي بالكوكب
ولو شئت كان لدى الهلال بنهر المجرة كالمركب

وهكذا يتسم فخره بالمبالغة الشديدة ، والغلو الزائد ·

وفي القصيدة الثانية لا يرهب الدهر مهما ناصبه العداء بل ولا يخاف الموت الزؤام اذا عدا عليه ، بل ان الدهر لو حاول أن يمد له يدا لينال منه لرد اعتداءه باعتداء مثله ·· وهي قصيدة مشهورة منها :

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى
وغير يهوى أن يكون مخلدا

ولكنني لا أرهب الدهر ان سطا
ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا

ولو مد نحوي حادث الدهر طرفه
لحدثت نفسي أن أمد له يدا

توقد عزمي يترك الماء جمرة
وحلية حلمي تترك السيف مبردا

وفرط احتقاري للأنام لأنني
أرى كل عار من خلا سؤددي سدى

وأظمأ ان أبدى لي الماء منة
ولو كان لي نهر المجرة موردا

وقد بلغت هذه القصيدة ثلاثة وأربعين بيتا ، وهى من أشهر قصائده على الاطلاق ، ولسهولة ألفاظها ، وبعدها عن التوعر كانت من بين المختارات من شعره ، ومن شعر العصر الأيوبى لتلاميذ المدارس ، وقلما خلا منها كتاب يختار من شعر ابن سناء ، وأفكارها ومعانيها أشبه بأفكار الشباب وغرورهم ، وما لديهم من طموح كاذب ، ولهذا نرجح أنه نظمها فى سن شبابه قبل أن يجابه حقيقة الحياة التى جعلته يتودد الى الملوك والرؤساء •

٧ ـ الزهد :

لم يكن ابن سناء من شعراء الزهد والتصوف على الرغم من أن الحياة المصرية فى ذلك العصر كانت تدعو الى شيء من الاستسلام للمقادير ، والاتجاه الى الله والزهد فى الدنيا • وقد نبغ فى الزهد والتصوف شاعران عظيمان هما ابن الفارض ومحيى الدين بن عربى وهما اللذان رفعا علم التصوف فاهتدى به المتصوفون من بعدهما •

أما ابن سناء فكان يثوب أحيانا الى رشده ، فتستيقظ أحاسيسه وتصفو نفسه ، فيخاف الله ويختار طاعته ، ويعاف الدنيا ، ويذكر غرورها وباطلها ، فينطلق ذلك فى نغم شعرى يعبر عن تجربة انسانية صادقة فيقول :

قد كان ما كان من جهلى وطغيانى وجاء ما جاء من نسكى وايمانى

وسر من بعد غم النفس بى ملكى
واغتم بعد سرور النفس شيطانى

فما المعمم بعد الزهد من أربى
ولا المقنع بعد النسك من شانى

ضحكت فيها وانى قد بكيت بها
فالجهل أضحكنى والعقل أبكانى

ثم يقول :

اليك عنى يا دنيا اليك فلى
فى وصل مثلك شأن المبغض الشانى

نسيت الفا بخيلا ليس يذكرنى
بذكر رب كريم ليس ينسانى

وعفت دنيا تسمى من دناءتها
دنيا والا فما مكروهها الدانى

وخفت عصيان من لو شاء أهلكنى
واخترت طاعة من لو شاء أنشانى

سلنى عن الدهر لا تسأل سواى به
ولا تسلنى عن همى وأحزانى

فى وحشة القبر والدود المقيم به
شغل لنفسى عن دارى وبستانى

أقول دارى وجيرانى مغالطة
والقبر دارى والأموات جيرانى

سأوسع القبر بالأعمال أصلحها
جهدى وألبس زهدى قبل أكفانى

وهى قصيدة تقع فى واحد وثلاثين بيتا ، وما عداها فمقطعات لا تتجاوز خمسة الأبيات ، يتحدث فيها تارة عن الموت وطهارته للنفس ، أو عن الدنيا ودناءتها ، أو عن الآخرة وتفريغ قلبه لها ،

أو عن الزمان وعدم وفائه ، هى خطرات تفد الى نفسه عندما تتشبع من الباطل وتحن الى الصفاء ، وربما يدفعه الى هذه النفثات مواقف مؤلمة من الحياة ، فيعبر تعبيرا صادقا عن مشاعره وأحاسيسه •

٨ ـ الاعتذار والاستعطاف :

ويلى الزهد فى الديوان ما اشتمل عليه من بعض القصائد والمقطعات فى الاعتذار والاستعطاف ، وعلى الرغم من أنه كتب قصيدة طويلة الى القاضى الفاضل حين غادره وهو مريض فى دمشق والتى مطلعها :

تذكرت أيام الصبابة والصبا
وعيشا مليحا بالمليحة معجبا

وهى قصيدة تقع فى واحد وخمسين بيتا ، الا أن طابع المدح يغلب عليها • أما ما ورد فى الاعتذار والاستعطاف فقليل نادر ، وأغلبه مقطعات يرق فيها غاية الرقة ، ويبتعد عن الاغراق فى الصنعة ويترك نفسه على سجيتها كاعتذاره لمن عتب عليه فى ترك القيام له فقال :

أمانا فانى من عتابك خائف
وعفوا فانى بالجناية عارف

على أن لى عذرا فان كنت منصفا
فكن قابلا أولا فانك خائف

وما كان شغلى عنك الا لأننى
بفكرى على تحبير شكرك عاكف

وان كان جسمى عند لقياك قاعدا
فان فؤادى قبل لقياك واقف

وهكذا نلحظ رقة اللفظ ، وخفة الوزن ، وهدوء النغم ، وبساطة الفكرة ، ولكننا لا نعده من شعراء الاعتذار لقلة قصائدة فيه ٠

٩ ـ الحكمة :

لم ترد الحكمة فى شعر « ابن سناء » غرضا مستقلا ، وانما وردت فى تضاعيف شعره ، ولم يجد دافعا يدفعه الى الغرام بها ، وكان يستمد حكمته من تجاربه ومواقف الحياة ٠ والحكمة ليست الا موقفا من الحياة ينطوى على شحنة عاطفية ، وتجارب يتلقاها الشاعر من الحياة ومن الأحياء مباشرة ومثلها كمثل الأمثال العامية تحمل من الطاقة العاطفية ما يجعلها شيئا آخر غير التفكير الفلسفى ، والقضايا العقلية والمنطقية ٠ابن سناء حين يقول فى قصيدته التى رثى فيها جده :

وجنة الخلد بالأعمال تدخلها
لا بالحظوظ كما قالوا ولا القسم

كم قام غيرك للدنيا وقد قعدت
عنه وقامت لك الدنيا ولم تقم

قد عبر فى هذين البيتين عن شعور صادق ، وان بدا فى ظاهره التناقض لأن الصدق والكذب فى مثل هذه الأمور لا يخضع لمبادىء عقلية ، وانما يرجع الى حالات النفس ومشاعرها ، واختلاف مواقفها من الحياة :

وقوله :

ومن صفت منه عين فى الفؤاد رأى
ما خطه الله فوق اللوح بالقلم

مستمد من مشاعر التصـوف ، وهى مشاعر تمتزج فيهـا العاطفة بالخيال وبالنظريات الفلسفية ، ولا تقف عند حدود النظرة الفلسفية وحدها .

وحظ ابن سـناء من الحـكمة قليل ، وان تعمق فى جزئيات المعانى تعمقا عقليا يستوحيه من التلاعب اللفظى ، ومن منافسه غيره من الشعراء فلسيس على شىء من العمق فى تأمل الحياة والتدبر فى شئون الأحياء ، وقل أن يتجه الى استبطان نفسه أو مراقبة عواطفه، واستخلاص العبر مما يمر تحت سمعه وبصره (١) .

---

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر : ١٤٨ .

٦
منزلة ابن سناء فى موكب الأدب

ظهر « ابن سناء الملك » فى عصر عرف كثيرا من الأدباء ، كتاب وشعراء فى مصر والشام وفى العراق ، فقد عاصر فى مصر المهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١ هـ ، وعمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩هـ ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤هـ ، وكمال الدين ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ هـ ، وابن شمس الخلافة المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وابن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ ، وابن أبى الأصبع العدوانى المتوفى سنة ٦٥٤هـ ، وسيف الدين الياروقى المتوفى سنة ٦٥٦هـ ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

كما ظهر فى الشام فى هذا العصر كثير من الشعراء منهم « ابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ ، وبهرام شاه ابن فرخشاه

المتوفى سنة ٦٢٨ هـ ، والشواء الحلبى المتوفى سنة ٦٣٥ هـ ، وأمين الدين الحلبى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، ونور الدين الأسعردى المتوفى سنة ٦٥٦هـ ، وصدر الدين البصرى المتوفى سنة ٦٥٩هـ ٠

وقد تعددت ألوان الشعراء ومذاهبهم فى هذا العصر فمن شعراء فنيين ، اتخذوا الشعر حرفة لهم ، يعيشون على مايدره عليهم من رزق كالقيسرانى ، وابن منير ، والعرقلة ، وابن النبيه الى شعراء جعلوا الشعر أداة يعبرون بها عما يجيش فى أنفسهم لا يريدون على شعرهم مالا ولا جزاء كالشعراء من الملوك والأمراء والوزراء ٠

ومن هؤلاء من ينحدر من العرب الخلص ، ومنهم من ينحدر من الأتراك أو الأكراد أو القبط ٠

وفى وسط هذا السيل الجارف من الشعراء والأدباء لمع « ابن سناء الملك » ٠ ظهر نبوغه وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ، وقد أشار الى ذلك العماد الكاتب فى خريدته ، والقاضى الفاضل فى رسائله التى حواها « فصوص الفصول » (١) ٠ وعده « ابن خلكان » أحد الفضلاء الأدباء ، الرؤساء النبلاء وقالوا عنه : « انه كثير التنعم والتخصص ، وافر السعادة ، محظوظ من الدنيا ، يجتمع فى مجلسه الشعراء المجيدون ، واستحسن من شعره قوله فى مدح القاضى الفاضل :

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها
لما شك فيه أنه الجوهر الفرد

ومن قال ان الخيزرانة قدها
فقولوا له اياك أن يسمع القد

---

(١) فصوص الفصول : ٥٦ ٠

كما استحسن قوله :

لا الغصن يحــكيك ولا الجؤذر
حســنك مما كثروا أكثر

يا باســما أبدى لنا ثغره
عقــدا ولكن كله جوهر

قال لى اللاحى ألم تسـتمع
فقلت : يا لاحى أما تبصر (١)

وابن سناء واحد من ألمع شعراء العصر ، يرجع فى أصـوله الفنية والمعنوية الى ما رجع اليه الشعراء ، وان كانت له شخصيته وطابعه المستقل ، وقد ظهرت اتجاهاته الفنية فى ديوانه ، كمـا ظهرت فى موشحاته ، فلقد كان حريصا على الجناس اللفظى ، وعلى المقابلة بين المعانى ، والاعتماد على العقل فى توليد الأفكار ، وتمثل التراث الشـعرى القديم ، من ناحية التشـبيهات والاستعارات ، ومحـاولة الزيادة فيه والاضافة فى الجزئيـات اليه ، ومواصـلة ما اصطلح عليه الشعراء من الشكوى والعتاب • ومن جعل المحبوب مثلا أعلى فى الجمال من كل وجه وناحية ، ومن الحديث عن الصد ، وعزل العازلين ، وعذاب المحب وألمه وسهاده وبكائه ، ودلال الحبيب وسطوته ، ومن الحديث عن الخمر ووصف لونها ، وحببها وأثرها فى شاربيها ، وما تنطوى عليه من لذة ، ومن الاشارة الى الرياض، واقامة التشبيهات بين مظاهرها ، وبين أعضاء المحبوبة ، ولقـد تغزل فى أشعاره وفى موشحاته بالغلمان وبالأتراك منهم خاصة ، كما ظهر فيهما سمات الحضارة وسمات البـداوة فى الحـديث عن المعشوق •

---

(١) وفيات الاعيان : لابن خلكان .

وقد شغف ابن سناء بحسن التعليل وبالمفارقات ، وبايراد ما يشبه القضايا المنطقية ، والحجج العقلية ؛ وقد ظل هذا قائما فى الموشحة ولكنه لم يتوسع فيه توسعه فى الشعر لأنه شغل نفسه بتلمس القوافى الكثيرة ، ولذلك كان تجديده فى المعانى ، وابتكاره فيها أوضح فى شعره منه فى موشحاته (١) .

وعلى الرغم من تأثر ابن سناء الملك بالقاضى الفاضل لأن كلا منهما أولع بالزينة اللفظية ، وكلاهما أفرط فى التلاعب اللفظى وكلاهما بلغت به المبالغة حدا كبيرا حتى قال القدماء ان ابن سناء الملك من مدرسة القاضى الفاضل ، ولكن الواقع أن ابن سناء كان مثل القاضى الفاضل تماما له ثروة لفظية استطاع بها أن يتلاعب ، وأن يكثر من التوريات ، فالتورية أصل من أصول فن ابن سناء الملك كما هى أصل من أصول الفن عند القاضى الفاضل ومما يدل على استقلال شخصيته واعتداده برأيه أنه كان يبدى عجبه بابن المعتز بينما كان أستاذه القاضى الفاضل يعيب شعره ، ويحط من قدره ، وجرت بينهما محاورات فى ذلك دافع كل منهما عن وجهة نظره ، ومن ذلك كله نرى أن ابن سناء كان واحدا ممن بلغوا منزلة مرموقة فى موكب الأدب العربى فى عصره .

بمن تأثر وفيمن أثر :

كان الشعراء الجاهليون يصدرون فى شعرهم عن الحياة وما تمليه عليهم من أحداث ، ولم يكن للزاد الثقافى كبير أثر فى شعرهم فلما كثر رصيدهم من الشعر ، ويسر تقدم العلم والمعرفة وسائل التسجيل والتدوين ، وأصبح فى العصور الأدبية المتعاقبة

---

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٢١١ .

زاد كبير وفيض عظيم من التراث الأدبى لم يقنع الشعراء بما يستمدونه من أحداث الحياة ووقائعها بل اطلعوا على آثار من سبقهم ، فاتخذوا منه مددا وعونا ، وتأثروا به تأثرا متفاوتا ، فابن سناء شاعر من أولئك الذين اغترفوا من الثقافة العربية ، ولم يدعنا نستنبط ذلك بأنفسنا بل دلنا على بعض من جعلهم رمزا للتفوق الأدبى ، والتمس من أدبهم فى أفكاره ومعانيه ، وبديعياته ما يعزز اتجاهه الأدبى ، فهو يبدى تعجبه بابن المعتز ، وتأثره العميق به ، فحين اعترض القاضى الفاضل على استعماله « يعزل بيت الوجه منه ويكنس » فى قوله :

صليني وهذا الحسن باق فربما
يعزل بيت الوجه منه ويكنس

حين كتب اليه يقول : « .... وبيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة فان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلا ، فأجاب ابن سناء : « وعلم المملوك مانبهه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنسه من القصيدة وهو : « صلينى وهذا الحسن باق .. البيت » .

وقد كان مشغوفا بهذا البيت مستحليا له متعجبا منه ، معتقدا أنه قد ملح فيه ، وأن قافيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه ، وما أوقعه فى الكنس الا ابن المعتز فى قوله فى قصيدته المشهورة :

وفؤادى مثل القناة من الخط وخدى من لحيتى مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر ،ولا مال المملوك الا الى طريق من مال اليه طبعه ، ولا سار قلبه الا الى من دله عليه سمعه » .

ومن نافلة القول أن نقرر تأثره بالقاضى الفاضل ، فقد كان القاضى الفاضل له معلما وأستاذا ينقد شعره ويرسم له الطريق ويأخذ بيــده اليه ، وكان دائم التشــجيع والمساعدة له ، وكتاب « فصوص الفصول » يحوى عديدا من الرسائل بين القاضى الفاضل وبين ابن سناء أو أبيه ، وجلها فى تقريظ قصيدة أو نقد فكرة آمن بها ابن سناء ، أو فى توجيه أو ارشاد ...

كما تأثر ابن سناء بكثير من الشعراء الذين قرأ قصائدهم واطلع على أدبهم ، ومن هــؤلاء امرؤ القيس ، ومهيــار الديلمى ، وجرير، والشريف الرضى والمتنبى، وأبو العلاء المعرى، وأبو العتاهية، كمــا أعجب بالبحترى وعاب أبا تمــام ، وانعكس ذلك كله على شعره ، فعندما مدح القاضى الفاضل قال فى مقدمته الغزلية :

سحبت ذيل دموعى اثره وغدا
سواى يسحب أذيالا على الأثر

ألا تجد أنك أمام تلك الصورة التى أتى بها امرؤ القيس تماما فى قوله :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا
على أثرينا ذيل مرط مرحل

فالصورة واحدة وان اختلفت العبارة .

وقد ظهر تأثره بقصيدة « مهيار الديلمى » التى يمدح فيها أبا القاسم فى يوم المهرجان ، والتى مطلعها :

ما كان سهما غار بل ظبى سنح   ان لم يكن قتل الفؤاد وما جرح

فعندما مدح « ابن سناء » القاضى الفاضل وهنأه بالقدوم من السفر قال :

يا قلب ويحك ان ظبيك قد سنح
فتنح جهدك عن مراتعه تنح

وكانت العرب تتفاءل بالطير السانح الذى يتجه صوب اليمين وتتشاءم بالبارح الذى يتجه صوب الشمال ، وفى المثل : « من لى بالسانح بعد البارح » ، وقد جرى فى هذه القصيدة على نهج قصيدة مهيار .

كما تأثر بجرير فى غزله ، فاختار بعض أفكاره التى أعجب بها وأخرجها اخراجا جديدا ، فقوله :

دع قضب نعمان أو كثبان يبرين
ما قلب القلب الا أعين العين
وقد تعشق قلبى من بنظرته
يميتنى وبأخرى منه يحيينى

مأخوذ من قول جرير الذى عده ابن رشيق فى عمدته ، أغزل بيت قالته العرب :

ان العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يقتلن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله انسانا

غير أن ابن سناء قد أخذ المعنى وزاد عليه فجعل نظرة المحبوب تحيى وتميت بينما جعلها جرير تميت فقط .

وقد عارض قصيدة الشريف الرضى التى مطلعها :

يا ظبية البان ترعى فى خمائلها

ليهنك اليوم أن القلب مرعـــاك

فقال فى قصيدته التى مطلعها :

يا منية القلب لولا أن يقال سلا

لقلت ماكنت أعصى العذل لولاك

ولم يكتف بالمعارضة فى الوزن والقافية ولكنه أخذ كثيرا من معانى القصيدة ، فقوله :

رميت من مصر قلبا بالشآم فما

أسراك سهما الى أحشاء أسراك

هو مأخوذ من قول الشريف الرضى :

سهم أصاب وراميه بذى سلم

من بالعراق لقد أبعدت مرماك

وقرأ ابن سـنـاء لأبى العلاء المعرى ، وتأثر ببعض معـانيه فقال يذم الشمس :

أنت عجوز لم تبرجت لى

وقد بدا منك لعاب يسيل

وقد أخذ هذا المعنى من أبى العلاء فى قوله :

وفضل الشمس فى الأيام باق

وان مدت من الكبر اللعابا

وان قلب ابن سناء المعنى وعكسه .

وقد انعكست عليه نفسية المتنبى فى طموحها وغرورها وكبريائها فقال مفتخرا :

تملكت در القول منتخبا له
فأدنى الذى أدنى وأقصى الذى أقصى

وهو شبيه بما قاله المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم

وقوله : ـ

ومـا الدهـر الا من رواة قصـائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا (١)

وتأثر بأبى العتاهية فى قوله : ـ

أتته الخـلافة منقـادة اليـه تجـرر أذيالهـا
فـلم تك تصـلح الا له ولم يك يصلح الا لهـا (٢)

فأخذ ابن سناء هذا المعنى وقال : ـ

زهت الوزارة باسمه وتوشحت
منه بمن لبس الفضائل واتشح

جاءته خاطبـة فكان المصطفى
وسعى سواه لهـا فكان المطرح

---

(١) ديوان المتنبى : ٢٨١ .

(٢) ديوان أبى العتاهية :

والحق أن ابن سناء قد أعجب بالأدب العباسى ، واغترف منه ولكنه اصطفى من أدبائه ابن المعتز فعده أستاذا ومعلما تتلمذ على يديه كما ازداد اعجابه بالبحترى ، وعاب أبا تمام .

وظهر كثير من الشبه بين شعر ابن سناء ، وشعر شمس المعالى (١) وأسامة بن منقذ مما يؤكد اطلاع ابن سناء على قصائدهما، وتأثره بهما ، ومما نجده من تشابه واضح فى الاصول الفنية بينه وبينهما قول شمس المعالى حين سمع أن مصر سوف تخضع للخليفة العباسى وينتهى فيها حكم الفاطميين : —

ليهنك يا مولاى فتحا تتابعت
اليك به خوص الركائب توجف

أخذت به مصرا وقد حال دونها
من الشرك ناس فى لهى الحق تقذف

وقد دنست منها المقابر عصبة
يعاف التقى والدين منهم ويأنف

فطهرها من كل شرك وبدعة
أغر غرير بالمكارم يشغف

فعادت بحمد الله باسم امامنا
تتيه على كل البلاد وتشرف

ولا غرو أن دانت ليوسف مصره
وكانت الى عليائه تتشوف

---

(١) وهو شمس المعالى أبو الفضائل الحسين بن محمد ابن تركان كان صاحب أبى هبيرة .

تملكها من قبضة الكفر يوســـف

وخلصها من عصبة الرفض يوسف

يريد بيوسف الأول « يوسف الصديق » عليه الســـلام وبيوسف الثانى « المستنجد بالله » الخليفة يومئذ . وقاله على سبيل الفأل . ألا تراه قال بعد هذا البيت : ـ

فشابهتـــه خلقا وخلقـــا وعفـة

وكل على الرحمن فى الأرض يخلف (١)

وجرى الفأل فى البيت باسم الملك الناصر « صلاح الدين » يوسف ابن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس وجاء « ابن سناء الملك » فمدح صلاح الدين وتأثر بهذه القصيدة وبهذا المعنى حين قال : ـ

أعدت الى مصر سياسة يوســـف

وجددت فيهـــا من سميك موسما

وأحييت فيهـــا الدين بعد ممـــاته

فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريمـــا

وحين تقرأ مدائح أسامة بن منقذ (٢) (٤٨٨ ـ ٥٤٨) هـ تحس كأنك تقرأ ديوان ابن سناء ، فالأفكار والمعانى والمبالغات التى طبعت عمود الشعر فى هذه الفترة واحدة عند الاثنين ، فحين يمدح « أسامة بن منقذ » « طلائع بن رزيك » : يجعل له الفضل من دون الناس جميعا فهو أكرم من حاتم ، وهو قد تكفل للاسلام بمنع حماه

---

(١) الروضتين : ١٩٧/١ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ (خط بدار الكتب المصرية) .

وهو هادم ما بناه الكفار ، وعزمه القوى يحمى سرحة الاسلام وهو قد أيد الاسلام بعدله ، وببذله وبتقواه ، وهـــذه المعانى شـــاعت فى مدائح ابن سناء • استمع الى أسامة يقول :

لك الفضل من دون الورى والأكارم
فمن حاتم ما نال ذا الفخر حـــاتم

ومنهـــا :

تــكفلت للاســـلام أنك مـــانع
حمـــاه مبيح ما حمى الكفر هادم

فأصـــبحت ترعى سرحـــه بصريمـــة
من العزم لم تبلغ مداهـــا العزائم

وأيدته بالعـدل والبـــذل والتقى
وضرب الطـلا والصالحات دعـــائم

رميت العـــدا بالأسـد فى أجم القنا
على الجرد تقتـــاد الردى وهو راغم

تسير جيوش الطير فوق جيوشـــها
لهـــا كل يوم من عـــداه ولائم

فان خفض الفرسان للطعن فى الوغى
رماحهم انقضـــت عليهـــا القشاعم

تعرض منهـــا فوق غزة عـــارض
ســحاب المنـــايا فوقه متراكم

ثم استمع الى ما قاله ابن ســـناء فى مدح الملك النـــاصر « صلاح الدين » :

لقد نصر الاسلام منهم بنــــاصر
يرى مغنما فى الدين ما كان مغرما
يذب عن البيت المحرم جنـــده
فلولاهم ما كان بيتــــا محرمـا

ومنها قوله : ـ

اذا ما صلاح الدين سار بجيشـــه
فليس الحمى ان أمـــه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع واســـتلت الظبى
بآفاقه حتى أضـــاء وأظلمــــا
طليعته الوحش الضـــوارى مشيحة
وساقته الطـــير الجوانح حومـــا
يقول الذى يلقـــاه كم فيه فارســا
فيخبره المهـــزوم كم فيـــه ضيغما
وكم فيه من يلقى الكمى مقنعـــا
بفرحـــة من يلقى الحبيب معممـــا

فما أشد الشبه بين الاتجاهين ٠

تأثير ابن سناء فيمن بعده من الشعراء :

وكما تأثر ابن سناء بمن سبقه من الشعراء نجد أثره كذلك واضحا فيمن أتى بعده من الشعراء بل وفيمن عاصره ولعل ذلك يرجع الى المنزلة الأدبية والاجتماعية التى حظى بها أكثر من غيره

وكذلك للصلة العميقة القوية بينه وبين القاضى الفاضل ، والتى كانت سببا فى ذيوع قصائده وانتشارها ، فقد حدثنا القـــاضى الفاضل أنه كان اذا وصلته قصيدة من « ابن ســناء الملك » جمع شعراء الشام وقرأ عليهم تلك القصيدة ، فاذا أبدوا تعجبهم أخبرهم أنه مما يزيد فى العجب والدهشة أن الشاعر حدث السن ، قد ظهر أثر شعره فى البهاء « زهير » (١) الذى اتخذ المنهج التقليدى فى المدح ذلك الذى سار عليه معظم الشعراء الايوبيين ، وظهر واضحا فى شعر « ابن سناء » فقد مدح البهاء زهير « ابن اللمطى » والملك العادل ، والملك الكامل ، ففى مدح الملك الكامل يقول : ـ

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقـــابها ملة الــكفر

ومن أجله أضحى المقطم شامخــــا
ينافس حتى « طور سيناء » فى القدر

تدين له الأمـــلاك بالــكره والرضى
وتخدمه الأفلاك فى النهى والأمـــر

فيا ملـكا سامى المـــلائك رفعـــة
من المــلأ الأعلى لـــه أطيب الذكر

يهنيـــك ما أعطـــاك ربك انـــه
مواقف هن الغر فى مـــوقف الحشر

به ارتجعت دمياط قهرا من العــدا
وطهرهـــا بالســـيف والملة الطهر

---

(١) بهاء الدين زهير بن محمد على ينتهى الى المهلب بن أبى صفره (٥٨١ ـ ٦٥٦) هـ راجع تاريخ ابن الوردى جـ ٢ : ٢١٩٩ البهاء زهير : أحمد الشايب : ٧٢ .

ورد على المحراب منهـا صـلاته
وكم بات مشتاقا الى الشـفع والوتر

فـلازلت حتى أيـد الله حـزبه
وأشرق وجه الأرض جـذلان بالنصر

كذلك كانت مدائحه فى الأمير « جلدك » والملك المسعود صلاح الدين والملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل . ولا شك أنه قرأ مدائح « ابن سناء الملك » وتأثر بها ، وانك لتجد الشبه واضحا فى المعانى والصور والأساليب اذا ما تصفحت مدائح ابن سناء فى مدح الملك الناصر صلاح الدين اقرأ قوله : ــ

تخر له الأمـلاك ذلا وانمـا
تعـز اذا خرت لديه من الذل

أليس هو ما قاله البهاء زهير :

تدين له الأفلاك بالـكره والرضى
وتخـدمه الأفلاك فى النهى والأمر

وقوله : ــ

أبدت النصارى واليهـود بمعرك
وما جاء هذا قط فى سالف النقل

وكانت بهم تلك البلاد تنجسـت
فناب دم منهم عن الماء فى الغسل

تكبر فيها الله فى الجـامع الذى
جمعت به بين الفريضـة والنفل

وصليت فيهـا جمعة بجمـاعة
تناديك للاسلام يا جامع الشمل

واذا قرأت قول ابن سناء فى مدح الملك الناصر فى قصيدته الميمية التى مطلعها : ـ

أرى كل شيء فى البسيطة قد نما
بعدلك حتى قد نمت أنجم السما

ومنهـــا : ـ

يذب عن البيت المحرم جنـــده
فلولاهم ما كان بيتـــا محرمـا

ومنهـــا : ـ

أعدت الى مصر سياسة يوســـف
وجددت فيهـا من سميك موسما

فاذا قرأت قول ابن سناء هذا ثم قرأت مدائح البهاء زهير تجد أنه متأثر حتما بهذه المدائح دون أدنى شك لأنه يسير على المنهج نفسه الذى سار عليه ابن سناء .

علم الدين أيدمر المحيوى (١) .

ومن يقرأ مختار ديوان « علم الدين أيدمر » يجد شـــبها واضحا بين مدائحه ومدائح ابن سناء ، فالمنهج الذى سار عليـــه الشعراء فى هذا العصر من تمجيد الكرم والكياسة ، وبعد النظر والسياسة والشجاعة ، واحتمال الأحداث بجلد وثبات من غير هلع ولا يأس يتفق مع اتجاهات ابن سناء .. ففى قصيدته التى يمدح فيها الصالح أيوب ويهنؤه بفتح دمشق والتى مطلعها : ـ

---

(١) هو عتيق محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد الذى كان وزير الجزيرة عاصر ابن سناء ، ومختار ديوانه طبعته دار الـكتب ١٣٥٠ هـ راجـــع ترجمته فى الحياة الادبية : ٢١٢ .

نصرت بالرعب قبل البيض والأسل
ولطف صنع كصنع الله والرســـل

نجد أن معانى هذه القصيدة قد كررها كثيرا ابن سناء وتأثر بها هذا الشاعر وغيره من الشعراء · وحقا لم يكن ابن سناء وحده هو الذى أثر فى اتجاه هؤلاء الشعراء بل كل ما نؤكده أن الاتجاه الفنى الذى ظهر فى شعر ابن سناء الملك بل والشعراء الأيوبيين يكاد يكون واحدا ، وأن شعر ابن سناء ذا أثر واضح فى شعرهم ، ولكنه لم ينفرد بهذا التأثير لأن الطابع الذى ظهر فى شعره برز كذلك فى شعر الايوبيين بصفة عامة ، وبخاصة فى المدائح · والفروق بين اتجاهات هؤلاء الشعراء لا تكاد تحس ·

العماد الأصفهانى وابن الساعاتى :

والعماد الأصفهانى وابن الساعاتى كل منهما عاصر ابن سناء وقد كان أولهما كاتبا فى ديوان الانشاد لنورالدين محمـــود ، ثم شاعرا بارزا من الشعراء الذين مدحوا صلاح الدين حين آل اليه أمر الشام بعد نور الدين ، وقد سبق ابن سناء فى شهرته كأديب وشاعر لأنه سبقه فى الزمن اذ ولد فى ٥١٩ هـ وبقى حتى عـــام ٥٩٧ هـ ، ولكن القارىء لقصائده يجد التشابه القوى فى المعانى والأساليب والطريقة التقليدية التى سار عليها كل منهما فى المدح فقصيدته فى مدح نور الدين والتى منها : ـ

عقدت بنصرك راية الايمـــــان
وبدت لعصرك آية الاحســـان

يا غالب الغلب الملوك وصائد الصيد
الليـــوث وفارس الفرســـان

شديدة الشبه فى ألفاظها ومعانيها بشعر ابن سناء الملك ، فلا شك أن ابن سناء قد اطلع على هذا الشعر ، وتأثر به ، وكان العماد الأصفهانى يقرأ قصائد ابن سناء وهو فى الشام فيعجب بها ، ويزيد عجبه حين يعلم حداثة سنه .

أما ابن الساعاتى (١)

فقد تأثر بابن سناء كما تأثر به ابن سناء ، وانك تلمح ذلك واضحا من اطلاعك على ديوان كل منهما ، فالصنعة البديعية لفظية ومعنوية ، وغرام ابن الساعاتى بالتشبيه والاستعارة ، والتجنيس والطباق يشير الى هذا التأثير المتبادل بينهما ، اقرأ ما قاله ابن الساعاتى فى فتح طبرية يمدح « صلاح الدين » :

أدرت على الفرنج وقد تلاقت ... جموعهم عليك رحى طحونا
ففى بيسان ذاقوا منك بؤسا ... وفى صفد أتوك مصفدينا
لقد جاءتهم الأحداث جمعا ... كأن حروفها كانت كمينا
وخانهم الزمان ولا سلام ... فلست بمبغض زمنا خئونا
لقد جردت عزما ناصريا ... يحدث عن سناه طورسينا
فكنت كيوسف الصديق حقا ... له هوت الكواكب ساجدينا
لقد أتعبت من طلب المعالى ... وحاول أن يسوس المسلمينا
وان تك آخرا وخلاك ذم ... فان محمدا فى الآخرينا

فالتجانس بين صفد ومصفدينا ، والمشابهة بين يوسف الصديق ، ويوسف « صلاح الدين » والمعانى التى أوردها كل ذلك يشهد بالتشابه الواضح بين الشاعرين .

---

(١) هو على بن رستم بن هردوز خرسانى الاصل ولد سنة ٥٥٣ هـ ، وتوفى سنة ٦٠٤ هـ راجع ديوانه ، الاعلام ج ٢ : ٦٧١ .

آراء النقاد فى شعره :

لقد حظى أدب ابن سناء بدراسة مستفيضة فى عصره فلم يكد يلقى بالقصيدة حتى يجتمع حولها النقاد والادباء ، فهذا مادح وذاك قادح ، ذلك يعنى باستخراج جيدها ويتغاضى عما فيها من ضعف أو اسفاف بل وربما التمس لهذا الضعف أو ذاك الاسفاف وجها من الحسن أو ناحية من الجمال ، وذاك همه أن يتصيد مرذولها وقبيحها ، وغايته أن يبرز نواحى الضعف فيها .. وهكذا كان شأن النقاد والدارسين الذين عكفوا على دراسة شعر ابن سناء يدفعهم النقد الذاتى أكثر مما يحركهم الموضوع ، ولعل اهتمام الدارسين بأدبه يرجع الى قربه من القاضى الفاضل من ناحية والى منزلته الاجتماعية التى كان يتمتع بها من ناحية أخرى . وقد حظى ابن سناء بتشجيع القاضى الفاضل واذاعة شعره . كما يحس المتصفح لخزانة الأدب لابن حجة الحموى أنه من الذين يتعصبون لأدبه ويدافعون عنه ، ويرون له منزلة سامية فى الأدب تفوق منزلة كثير من أبناء عصره فلنستمع لآرائهم :

رأى القاضى الفاضل :

يرى القاضى الفاضل أن ابن سناء له فى قصائده آيات محكمات ، وفرائد فاقت المعلقات ، وكتاب فصوص الفصول شاهد على ما نقول ، فقد كتب القاضى الفاضل على أثر القصيدة الفائية التى مطلعها : ـ

نظر الحبيب الى من طرف خفى
فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

قوله : « وما يرينا من آية الا هى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروسا الا وقد جمع بين حسنها وبختها ، وقلما يجمع الحسن

والبخت ولهذا قيل ، وقد تمنى المليحة بالطلاق ، وعقائله المليحة لا تطلق ولا تطلق ، وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن هذه بالقلوب تعلق ، وبالضلوع تعنق ، فالمعلقات بعدها زادت على عدتها وفضلتها هذه بجودتها وجدتها ، ثم يقول : « ولو أن البلاغة حلة لكان لابسها ، ولو أن الشعراء حلبة لكان فارسها ، ولقد أنجب الزمان الذى ولده ، وفخر الوالد الذى ما قضى حقه أن أحبه وما أنصرف عن بيت أشهد له بالسبق الا استأنفت بيتا أشهد بأنه الأحق ، وكل يدلى الى القلب بحجة ، ويفد اليه بمقتضى لذة ومستطرف بهجة ... »

ولما كتب ابن سناء قصيدته : —

تذكرت أيام الصبابة والصبا
وعيشا مليحا بالمليحة معجبا

وجرى فيها على نهج قصيدة البحترى التى مطلعها : —

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا
خيال اذا آب الصباح تأوبا

وكان يعتذر فى قصيدته للقاضى الفاضل من تركه اياه فى حالة مرضه ومفارقته وهو فى دمشق أشد ما يكون احتياجا اليه ... فكتب اليه القاضى الفاضل ردا على هذه القصيدة : « .... كلما قرأت فصلا أو بيتا تحللت عقدى ، فعلمت أن أقواله هى النفاثات فى العقد ، وأن من وجد ما وجد فقد منه ما فقد .... ووددت لو كان البحترى حيا فكنا نلسعه من تلك القصيدة بحيه ، وكانت بائيته تغض من بأوها وعجبها ، وتستتر من الأوراق فى حجبها ، وكنا نعلم أى الزينبين هى الخلوب ، وأيهما أحق بملك

القلوب ، ولا شك أن الغالبة هى زينب الغالب وهو صاحبنا ، والمغلوبة هى زينب المغلوب (١) » .

وكان القاضى الفاضل كما ذكرت يذيع قصائده ، وينشر محاسنه ، وقد حفظ « فصوص الفصول » رسالة من القاضى الفاضل تنبىء عن ذلك فقال :

« ... وقد علم الله ابتهاجى أن أنشأ الزمان مثله ، وتصورى الغاية التى يخرج اليها فضله ، وتهادى الشام وشعراء الوقت هذه القصيدة العينية ، واشتدت بهـا الأعين ، وأثنت عليهـا الألسن فاستغربوا الحسن قبل أن ذكرت السن ، فلما ذكرته فمنهم من عرفنى فى لحن القول السعيد ، وأبرع من خطابه ، وأحسن من صوابه ، فانه كتاب يغنى الكتب والأقلام أوصافا ، ويشتمل على جواهر حق لخواطرها أن تسـمى بحارا ، ولقراطيسها أن تسـمى أصدافا ، عين الله على ذلك الكمال ، ولله در تلك الأنفـاس التى تستخف عقول الرجال بل عقود الجبال ، وقد ألان الله له ما ألان لنبيه عليه السلام من الحديد الذى له بأس شديد ، وأجرى على قلمه ما أجرى على النضار الذى فيه غنى عتيد ، وما وقفت على جديد من قوله الا انصرف قلبى عن الخليع ، ويفعل بالأعطاف مايفعل بالغصن الرطيب الريح الخريع ، ولقد أبقى للآباء فى الآثار ذكرا ، وللأبناء فخرا ، وأرسلها مقلدات ، فأرهفها مجردات ، وأثارها أوابد فنظمها قلائد ، فسار بهـا من لا يسير مشمرا وغنى بهـا من لا يغنى مغردا » (٢) .

ولما مدح ابن سناء الملك الملك الناصر بقصيدته النونية التى مطلعها :

---

(١) فصوص الفصول .

(٢) فصوص الفصول : تحت عنوان : « فصل من كتاب الى أبى بخط ابن الحصين » .

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى
ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنـــا

فلما وصلت هذه القصيدة القاضى الفاضل وهو بالشام كتب اليه :

« وصلنى من القاضى السعيد قصيدة من نظمه ، وما أعرف كفئا لها بفنه ، وقد حضر جمـاعة فرأى منهم ما أهمه وغمـه ، وتحققوا أن البيان قد عصاهم وأطاعـه ، لزيادته فيه تنبيه عن الشاعرين القاصرين عن أمده ، وودت لو سمعاها ليعرف كل منهما أن يومه قد نسخ بعده ، والذى ذكره فى القافية وأنها مباعدة غير مساعدة وجامحة غير جانحة ، وبارزة غير واقدة ، صحيح لا يعلمه الا من ركبها فركلته ، وطالبها فأجلته ، وبالجملة ان محاسنه لا أقيس بها محاسن بليغ لأن البليغ له نادرة لا يلحقها لاحق ، كما لايسبقه أبدا سابق ، ومن السعادة أن المثنى عليه بالفضل صادق » (١) .

ومن هذا العرض لرأى القاضى الفاضل نرى أنه لا يقوم على على التحليل والتعليل ، وبيـان أوجه الحسن ، واقامة الدليل ، وانما يقـوم نقـده على الذوق ، والمحب لا يرى الا بعين الحسن ، ويغتفر كل ما هو قبيح ، وان كان القاضى الفاضل قد وجه ابن سناء أحيانا ، وقام بينهما جدل وحجاج ، وقد سبق أن تحدثت عن عدم استحسانه استعمال الشاعر كلمتى « يعزل ويكنس » فى قوله :

صلينى وهذا الحسن باق فربما
يعزل بيت الوجه منه ويكنس

---

(١) فصوص الفصول : ٧٤ ، ٧٥ .

فقد قال :

« وبيت « يعزل ويكنس » أردت أن أكنسه من القصيدة ، فان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلا ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك .

رأى ابن حجه الحموى :

وكثيرا ما استحسن ابن حجة شعر ابن سناء ، ورأى أن النقاد والشعراء الذين نقدوه ، وحاولوا أن ينالوا منه اما حاسدون، واما متجنون ، وان ابن سناء سابق وهم لاحقون .

لما قال ابن سناء قصيدته التى مطلعها :

تقنعت لكن بالحبيب المعمم
وفارقت لكن كل عيش مذمم

وباتت يدى فى طاعة الحب والهوى
وشاحا لخصر أو سوارا لمعصم

علق ابن حجة فى خزانته بقوله على البيت الثانى بقوله :

« هذا هو التشبيب ، ومخلصه من أحسن المخالص ، وقال.. لقد أحرز القاضى السعيد قصبات السبق برقة هذه الألفاظ ، وغرابة هذه المعانى ، ولقد خلب القلوب ، وجلا ظلمة الأفهام ، وأظنه من المخترعات » (١) .

وكان ابن سناء قد تعرض لعاصفة من النقد الشديد عندما قال هذه القصيدة فى مدح « شمس الدولة تورانشاه » ، وهجنوا

---

(١) خزانة الادب : ١٥٥ .

هذا الافتتـــاح فعابوا التقنع بالحبيب ، وقالوا كيف يكون الحبيب قناعا حتى يتقنع به ؟ ورد على هذا النقد جماعة آخرون وعدوا هذا النقد من قبيل التحامل والحسد ، فالتقنع فى رأيهم من القناعة أى الاكتفاء ، وقد رشح لذلك بالمعمم ، وفى قوله : « الحبيب المعمم » اشارة الى قول أبى الطيب فى قصيدته التى بدأها بقوله :

فراق ومن فارقت غير مذمم　　　وأم ومن يممت غير ميمم

والبيت المشار اليه هو قوله : —

ولـــو أن مـــا بى من حبيب مقنـــع
عـذرت ولـــكن من حبيب معـــمم

وقد شبب فى هـــذه القصيدة بأمرد ، ولعـــل السبب فى تعصب الشعراء على ابن سناء تلك التورية فى التقنع كما يتضح ذلك من هذين البيتين لابن المنجم حين أجاب الوجيه الذروى : —

ذروينـــا قتلته قـــلة عقـــله
فى نصـــر بيت شـــائع عن ضـــفدع
شىء من الشـــعر الركيـــك رويتـــه
لمخنثـــين معصـــب ومقنـــع

وليس السبب هو غرابة اســـتعمال حرف الاســـتدراك كما صرح بذلك Das nuwawabr هورتمان فى كتابه Hortman
ولما مدح ابن سناء الملك الناصر بقصيدته التى مطلعها : —

أبى صدهـــا أن يجمع الحســـن والحسنى
ووجدى بهـــا أن أجمـــع الجفن والجفنـــا

قال فى مقدمتها الغزلية : »

« تغنى عليهـــا حليهـــا طـــرباً بهـــا
وفاحت فقلنـــا هـــذه الروضـــة الغنا »

فقال « ابن حجة الحموى » فى كتابه خزانة الأدب » حين وصف « نوع التهذيب والتأديب » : « ان هذا النوع ليس له شاهد يخصه لأنه وصف يعم كل كلام منقح محرر ، وهو عبارة عن ترداد النظر فى الـكلام بعـــد عمله ، والشروع فى تهذيبه وتنقيحه ، ثم قال « رأيت العلامة زكى الدين بن أبى الاصـــبع ، قد استحسن من الشواهد اللائقة بهذا النوع قول القاضى السعيد ابن سناء الملك هـــذا البيت « تغنى عليها حليها طربا بهـــا ... الخ . وقال وقوله الصحيح :

« لو لم تقـــدم فى صدر البيت لفظة مشتقة من الغنـــاء ، حصـــل بهـــا فى البيت من الرونق ما لا يحسن بدونها ، وكان البيت خاليـــا من التهذيب فبوجودها حصـــل فى بيته تصـــدير وتجنيس وائتلاف وتهذيب ، وانتفى عنه من العيوب عدم الائتلاف، وقلق القافية ، وبذلك تقدم التهذيب ، فانه لو قـــال : « زهت بأزاهير الجمال وحسنه » لظهر قلق القافية . وتمكين تلك الأولى بسبب تصدير البيت بقوله : « تغنى ... » (١)

وعلق ابن حجة على قصيدته :»

ســـواى يخاف الدهـــر أو يرهب الردى
وغـــيرى يهـــوى أن يعيش مخـــلدا

قائلا : وممن افتتن فى قصـــيدة كاملة ، وتفنن ، وخلص من تفخيم الحماسة والفخر ، الى رقة الغزل وأحسن ، القاضى السعيد

---

(١) خزانة الادب :، بديع القـــرآن لابن أبى الاصـــبع تحقيق حفنى شرف : ١٥٨ .

ابن سناء الملك رحمه الله ، فانه قسم القصيدة شطرين وتلاعب فى ميدان البلاغة بالفنين ، وهذه القصيدة تقف دونها فرسان الحماسة ، ويكبو الجواد من فحولها ، وينثنى من لطائف غزلها من لعبت بلطف شمائله خمر لطف شمولها ، وممن حذا هذا الحذو ونسج على هذا المنوال ، ومشى على طريق ما سلكها أحد قبله الصاحب « بهاء الدين زهير » – ثم ذكر ابن حجة قصيدة زهير – قال أو قد اشتهرت قصيدة ابن سناء هذه بين الشعراء والنقاد حتى قال ياقوت الحموى فى كتابه ارشاد الأريب (١) : « ومن شعره الذى سارت به الركبان قصيدته الحماسية الغزلية : –

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يكون مخلدا

والقصيدة طويلة كل بيت منها غريدة فى عقد ، وشعره كثير وأكثره جيد (٢) » .

ويحلو لنا أن نصحب القارىء الى تلك المعارك الأدبية الحامية التى اندلعت حول أدب ابن سناء الملك بين القادحين والمادحين والمؤيدين والمعارضين :

المعركة الأولى بين النقاد :

قال ابن سناء فى قصيدته التى مدح بها صلاح الدين بعد فتحه نابلس ، البيت رقم ٨ :

بشوك القنا يحمون شهد رضا بها
ولابد دون الشهد من ابر النحل

---

(١) ارشاد الاريب ج ٧ : ٢٣٧ .

(٢) خزانة الادب : ص ٦٣ .

ذكر الصفدى فى شرحه على لامية العجم أن شرف الدين ابن جبارة أورد ما أورد على بعض الأبيات من هذه القصيدة من فساد المعنى ونقضه ، ثم قال فى هذا البيت : أراد أن يمدحهم فهجاهم بهذا المثل الذى جعله ككفن الميت ، لأنه جعل طعن رماحهم كابر النحل ، وابرة النحل لا أثر لها ، ولا ألم يحصل منها ، ولو أن كل عاشق انما يمنعه من معشوقه ، ويحجزه عنه لسع الزنابير ولدغها لسهل عليه صعبها ، وذل له منعها ، ولله در المجنون اذ يقول : ـ

وحقكم لا زرتكم فى دجنة   من الليل تخفينى كأنى سارق

ولا زرت الا والسيوف هواتف   الى وأطراف الرماح عواشق

ولأبى عبد الله عثمان المعروف بابن الحداد الأندلسى : ـ

انى أراع لهم وبين جوانحى
شوق يهون خطبهم فيهون

أوهل يهاب ضرابهم وطعانهم
صب بألحاظ العيون طعين

وكأنما بيض الصفاح جداول
وكأنما سمر الرماح غصون

ثم ذكر أشياء غير ذلك وقال : لولا وقوع هذا الشاعر فى شعره ، وقلة معرفته ، وقصور فكره ، لما قال : « بشوك القنا يحمون شهد رضابها » وكيف يحمى الشهد بالشوك ، ولو اتفق له أن يقول : « جنى رضابها لكان أسوغ وأبلغ ثم قال فى أول البيت « شهد » وفى آخره « شهد » وانما الأحسن أن يأتى بالمثل بالمعنى لا باللفظ لأنه اذا كرر بلفظه فكأنه هو وانما القصد أن يكشف

المعنى بلفظ موجز وقول مجموع معجز ، واذا تؤمل أكثر الشعر المضمن للأمثال وجد على هذا المثال ، وهذه العلوم تدق عن فهمه، ويخفى غرضها عن مرمى سهمه » انتهى ٠

ثم قال الصفدى : « أما كونه يدعى أنه لا ألم فى ابر النحل، ولا ضرر فى الزنابير فهذا مما لا يسمع وهو تحامل أليس فى ابر النحل والزنابير سما يمنع القرب منه والدنو اليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ، ومن مسائل النجاة : « كنت أظن العقرب أشد لسعا من الزنبور فاذا هو هى أو فاذا هو اياها ، ولعل بعض الناس لسعه زنبور فتورم منه ومات وبالجملة ففى ابر النحل سم تعاف النفوس الاقدام عليه ، وهو ما أراد أن طعن قومها مثل لسع ابر النحل كما قال المعرى : —

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم بالسمهرية دون الوخز بالابر

لأنه ما أتى بمثل ولا بكاف التشبيه بل نبه بالمثل الذى ذكره على أن حلاوة ريقها لا تنال الا بعد مشقة وعناء وأهوال ، كما أن الشهد من دونه ابر النحل ، وكل لذيذ محفوف بالألم ، فالجنة حفت بالمكاره ، وهذا غير وارد عليه ٠ واما انكاره شوك القنا فهو استعارة حسنة ، والتشبيه مطابق لأن الأسنة أشكال مستدقة ملسنة حادة، كما هو الشوك ، وأتى بها ليطابق الكلام المثل فى قوله

« ولا بد دون الشهد من ابر النحل » فقوله «شوك» يناسب ابر النحل وقد شبه الشعراء القنا بالشوك قال الأرجانى :

ورد الخدود ودونه شوك القنا
فمن المحدث نفسه أن يجتنى

وقال ابن خفاجة : ـ

والخيـــل تعثر فى شـــبا شـــوك القنا
وتظل تســـبح فى الـــدم المـــوار

وما أعجبنى شىء مما أورده عليه غير انكاره تكرار الشهد ، وكان الأحسن لو قال :

« **بشـــوك القنا يحمون رشف رضابها** »

وأما المصراع الأخير من كلام المتبنى حين خاطب العـاذلة فى قصيدته : ـ

تريدين لقيان المعالى رخيصـــة
ولا بد دون الشـــهد من ابر النحـــل

فيقول : لا يمكن حصـــول المعالى رخيصـــة ،ومن أراد جنى الشهد فعليه أن يقاسى لســـع النحل ، فلا تحصل خلاوة الشـــهد الا بعد مقاساة اللسع (١) .

معركة ثانية :

وقال ابن سناء فى قصيدته التى يمدح بها صلاح الدين بعد فتحه « نابلس » : ـ

لهـــا ناظر يا حـــيرة الظبى اذ رنا
به كحـــل ناداه يا خجـــلة الكحل

---

(١) الغيث الجزء الاول ص ٢٢٤ .

وقد عاب هذا البيت ابن جبارة من ناحيتين. الاولى : انه قال « يا حيرة الظبى » ولم يحار مع وجود المقاربة ، وعدم المباينة كما أنه جعل العلة فى حيرته ، وجود الكحل .. ان هذه قريحة وفكرة غير صحيحة .. وهذا ان سلم له فهناك مأخذ آخر وهو أنه استعمل « اذ » شرطيه تدل على الجزاء وليست هى من حروف الشرط والجزاء، وهل ينبغى أن يقـول قائل « اذ يقوم زيد قام عمـرو » ، ويريد بذلك التعليق . والظاهر أنه أراد أن يقلد المتنبى فى قوله :

« وليس التكحل فى العينين كالكحل » فأخفق .

وقال ابن سناء بعد هذا البيت : ـ

« وأثقلها الحســن الذى قد تكاثرت
ملاحتــــه حتى تثنت من الثقـــــل

فقال ابن جبارة : هــذا قلب للمعنى ، وذلك أن الحسن فيما يظهر هو رونق يكون على محيا شــخص فيستحسن به ، والملاحة وهى وان كانت البياض فى الأصل فهى فى الاستعمال صفة صورة الذات من الحاجب والعين والأنف والفم ، ولهذا يقال فى العرف : مليح حســن يعنى أن الذات مكملة بالملاحة فى صورة مستحسنة عنــد تأملها لبلوغ الأمل ثم قال ولا ينبغى أن يقال : « هو حسن مليح » لأنه يجعل الوصف الذاتى تبعا لغيره ، وكان الصــواب أن يقول: « أثقلتها الملاحة التى تكاثر حسنها ، ولكنه قال : « حتى تثنت من الثقل » لو رفع الثقل لــكان أليق بالبيت وبصنعه فلا يقال له : « أهويت ولا أوهيت » وهل يتثنى الانسان من الثقل وانما يمشى قطعة واحدة فى حال الثقل . ثم قال وقد وكلت شرح هذا البيت لعجزى عن معناه الى عريف الحمالين فعساه أن يعرف معناه ، ولقد أحسن الأعشى حيث يقول : ـ

كأن مشيتها من بيت جارتها
مر السحابة لا ريث ولا عجل

وقال بشار : ـ

اذا قامت لحاجتها تثنت
كأن عظامها من خيزران

ثم قال الصفدى : « هذا لعمرى نقد حسن ، وسبيل ألقى عليه العنان والرسن ، ولو كان لى فى البيت الأول حكم لقلت : « لها ناظر يا حيرة الظبى عنده » وخلصت من « اذ » وعدم وضعها للمجازاة ، وأما قوله : « وأثقلها الحسن » فابن جبارة معذور فيه لأن حسنا يثقل صاحبه سمج بارد غث لأن الحسن انما يفيد الخفة والحركة والنشاط وما مدح شىء بالثقل غير الأرداف ، وما يتركها الشعراء بل يقرنونها بخفة الخصر ، ورشاقة القد (١) .

معركة ثالثة :

لما قال ابن سناء قصيدته التى مدح فيها القاضى الفاضل والتى مطلعها : ـ

باتت معانقتى ولكن فى الكرى
أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

جاء فيها قوله : ـ

يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر
فشعاع ذاك التبر نيران القرى

(١) الغيث جـ ١ : ٢٤٣ .

ولقد سمعت وما سمعت بواهب
جلت مواهب كفه أن تشكرا

قال ابن جبارة عن قوله : « يقرى الضيوف » لقد ألم ابن سناء أولا بقول ابن عمار » :

قدح زناد المجد لا ينفك من
نار الوغى الا الى نار القرى

وزاحم فيه أبا الطيب قوله : —

تركت دخان الرمث فى أوطانها
طلبا لقوم يوقدون العنبرا

وقوله : « يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر » . والتبر لا يكون الا كذلك وانما قصد المبالغة ، وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على اليفاع ليهتدى بها الجيران ، وتهتدى الى مواضعها الضيفان وقد جعله يدفع الى الضيوف صلة الانعام ، ويمنعهم من الطعام وكم من ضيف يمتنع من أخذ ذلك ويعده عيبا شنيعا . هذا ما قاله ابن جبارة .

أما الصفدى فيرى أن ذلك النقد تعنت زائد من ابن جبارة فليس للبيت علاقة بما قاله ابن عمار ، ولا بقول أبى الطيب ، نعم لو قال : نظر الى قول أبى الطيب : —

ومللت نحو عشارها فأضافنى
من ينحر البدر النضار لمن قرى

لكان فيه بعض سرقة .

وأما قوله : « التبر لا يكون الا أحمر» فلا نسلم له هذه

الدعوى لأن التبر ما كان من الذهب غير مضروب ، والشـاعر هنا ما أراد الا الذهب المضروب ، ولكنه قال تبرا مجازا ، والذهب منه ما يكون أحمر ومنه ما يكون أخضر ، ومنه ما يكون أصفر ، وهذا أمر يشاهده الحس ولولا أن ذلك لازم لما قيـل فى بعض المواطن : الذهب الأحمر كما يقال « الثلج الأبيض » وما بقى له من النقد عليه الا قوله : « ان الأضياف فيهم من لا يقبل الانعام » وهذا نقد حسن فان الضيف قد يكون أكبر قدرا ممن أضافه ، وأجل نعمة ، وأشرف همة ، ولا كذلك العفاة . فانهم لا يكونون الا دون من يسـألون ويستعطفون فلو قال : « يقرى العفاة » لزال الايراد ، مع أن فيه نظرا من اثبات القرى ، ويمكن أن يجاب بأنه خصص هذا القرى بالأضياف الذين يسألونه ، ويستعطفونه (١) .

وما أورده الصـفدى ردا على ابن جبارة فى هـذا المقام هو ما نميـل اليه ، غير أن الاعتذار عن الشـاعر بأنه يمكن تخصيص « القرى » بالأضياف الذين يسألونه ويستعطفونه فيه تحمل ظاهر اذ أن الأضياف ليس من صفاتهم السؤال والاستجداء .

معركة أخرى :

لما قال ابن سناء قصيدته الفائية التى مدح بها «صلاح الدين» جاء فى مقدمتها الغزلية : ـ

لا أرتضى بالشمس تشبيها لها   والبـدر بل لا أكتفى بالمـكتفى

وهو يشير الى قول ابن المعتز : ـ

والله لاكلمتهـا ولو انهـا
كالبدر أو كالشـمس أو كالمكتفى

---

(١) الغيث جـ ١ : ٢٦٤ .

فتعنت عليه ابن جبارة وقال :

هذا نوع من الجنون والاختلاط ، ذلك أن الشاعر كثيرا ما يسمع الشعر ويختلط فيه ذهنه فيفهمه على غير معناه ، فابن المعتز كان يقصد : « أنها فى حسنها كالشمس التى هى آية النهار أو كالبدر الذى هو آية الليل ، أو كالمكتفى الذى هو خليفة الأرض فى عظم الشأن وكبر السلطان ، فنقله هذا الشاعر الى الحسن ، ولم يكن المكتفى الا أسمر أعين قصيرا ، وليست هذه من صفات الحسن ، وقد أخطأ ابن سناء الفهم ، ونقل هذا المعنى على الحسن ، ويصدق فى هذا المقام قول ابن السجناء : —

الشعر كالروض ذا ظام وذا خضل
أو كالصوارم ذا ناب وذا خصم

مثل العرانين هـذا حظه خنس
يزرى عليه وهـذا حظه شمم

هذا ما قاله ابن جبارة ٠

ثم انبرى للرد عليه الصفدى قائلا : « ليس ابن سناء مما يخفى عليه هذا الذى ذكره ، وانما ذكر ابن المعتز المكتفى خروجا الى المديح بعلاقة الحسن ، ومازال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح وذلك مشهور لا يحتاج الى شاهد يؤيده ، وانما قول ابن المعتز قد شاع وذاع وملأ الأسماع ، وسار وطار فى الأقطار بالاشتهار فلما ذكر ابن سناء الملك حسن محبوبته ، وذكر الشمس والقمر والقافية فائية كان المكتفى جالسا فى طريقها ، وكان فى ذكره اشارة الى ابن المعتز مع زيادة الجناس فقال : — « بل لا أكتفى بالمكتفى الذى جعله ابن المعتز غاية فى الحسن عنده لأنه انتقل من أدنى الى أعلى

ألا ترى أن قول ابن سناء الملك فيه « بل » التى هى للاضراب ، وهذا غاية فى حسن النظم ، والتلاعب بالكلام ، وما ينكر هـــذا الا من ليس له ذوق بالادب ، فانه قد جاء هذا النوع كثيرا فى كلام المتأخرين . أنشدنى صـــفى الدين الحلى ســنة احدى وثلاثــين وسبعمائة : ـ

يقبـــل الأرض عبـد من عبيدكمو
عليكمو بعـــد فضـــل الله يعتمد

ما دارمية من أســـنى مطالبـه
يوما وأنتم له العلياء فالسند (١)

وابن جبارة قد جاوز الحد فى تعنته على ابن سناء الملك ، وأنكر دلالة التاريخ متعمدا ليؤكد زلات الشاعر . فقد ذكر أصحاب التاريخ أن المكتفى كان وسيما مليحا بديع الحسن درى اللون ، معتدل الطول ، أسود الشعر (٢).

وأما البيت المنسوب الى ابن المعتز فلا يوجد فى ديوانه الذى بين أيدينا ، وذكر « ياقوت » (٣) أن الثعالبى نسب هذا البيت الى ابن المعتز وهو فى الحقيقة لأبى بكر محمد بن السراج النحــوى ثم ذكر هذه القصة فى ترجمة ابن السراج (٤) : «حكى أن أبا بكر بن السراج كان يهوى جارية فجفته فاتفق وصول الامام المكتفى فى تلك الايام من الرقة فاجتمع الناس لرؤيته فلما شاهد أبو بكر جمال المكتفى تذكر معشوقته وجفاءها له فأنشد بحضرة أصحابه :

---

(١) شرح لامية العجم للصفدى : جـ ١ : ١٢٨ .

(٢) دول الاسلام للذهبى : جـ ١ : ١٤١ .

(٣) ارشاد الاريب : جـ ٢ : ٢٣٢ .

(٤) ارشاد : جـ ٧ : ١٠ .

ميزت بين جمالها وفعالها
فاذا الملاحة بالخيانة لا تفى

حلفت لنا أن لا تخون عهودنا
فكأنما حلفت لنا ألا تفى

والله لا كلمتها ولو انها
كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفى

ثم ان أبا عبد الله محمد بن اسماعيل بن زنجى الكاتب أنشدها لأبى العباس ابن الفرات وقال هى لابن المعتز، وأنشدها أبو القاسم ابن عبيد الله الوزير فاجتمع الوزير بالمكتفى وأنشده اياه ، وقال للمكتفى هى لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر فأمر له بألف دينار ، فوصلت اليه ، فقال ابن زنجى ، ما أعجب هذه القصة ، يعمل أبو بكر ابن السراج أبياتا تكون سببا لوصول الرزق الى عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر فيظهر من هذه الواقعة أن ابن السراج عمل هذه الأبيات بعد أن شاهد جمال المكتفى ، وأراد بقوله ، اظهار صفة حسنه وجماله فيثبت أن زعم ابن جبارة فى خروج الشاعر الى المكتفى كونه خليفة الأرض فى عظم الشأن ، وكبر السلطان ظن من الظنون لا تؤيده الحقائق ، ونسج على هذا المنوال الكاتب الشهير الصاحب بن عباد فى قوله : —

والله لا راجعته ولو انه كالبدر أو كالشمس أو كبويه

وعندى أن اقتباس ابن سناء الملك أحسن من اقتباس الصاحب ابن عباد » . ولا شك أن رأى الصفدى له وجاهته وحسنه فلا ضير أن يكون المكتفى غاية فى الحسن والبهاء كما يمكن أن يكون غاية فى المنزلة وعظم السلطان سواء أنسبت هذه الأبيات الى ابن المعتز أم الى غيره .

رأى آخر للصفدى :

لما قال ابن سناء مقطوعته التى يتغزل فيها بعمياء وكان الشاعر قد أعدها مع مقطوعة أخرى تحديا جاء فى احداهما قوله : ـ

رأيت منها الخد فى جـــؤذر
وناظرى يعقوب فى يوسف

فأشار فى الشطر الثانى الى ذهاب بصر « يعقوب » فى فراق يوسف ، وشبه العمياء بيوسف ، وشبه عينيها بناظرى يعقوب ،وقد علق الصفدى قائلا : «هذا البيت الثالث ماله فى الحسن وارث، ولقد تلطف فيما تخيل ، واختلس رقة المعنى وتحيل » . وقد ذكر أن الشيخ جمال الدين محمد بن نباته أخذ هذا المعنى عنه (١) .

آراء النقاد والدارسين المحدثين :

ولقد حظى ابن سناء من الأدباء والنقاد ودارسى الأدب الصليبى فى عصرنا الحديث ببعض العناية لكونه أحد الشعراء اللامعين فى العصر الأيوبى فمنهم من خصه بنتف سريعة ، أو رأى مقتضب ، يميل فيه الى الاجمال تاركا التفصيل ، ومنهم من اهتم بدراسة موشحاته وحدها كالدكتور جودة الركابى ، ولم يتناوله بدراسة واســـعة سوى الدكتور عبد العزيز الأهوانى وسنشير الى هذه الآراء اشـــارة سريعة .

رأى الدكتور أحمد أحمد بدوى :

لقد أفرد الدكتور أحمد أحمد بدوى لشاعرنا صفحات محدودة ترجم له فيها بقدر ما استدعته طبيعة بحتة وقال عنه : ـ

---

(١) الغيث جـ ٢ : ١٨٨ .

لقد بدت مقدرته في الشعر والنثر منذ وقت مبكر ، وسار على مألوف أهل عصره الذين أغرموا بالمحسنات البديعية ، واقتدى بالقاضى الفاضل الذى كان مغرما بالتورية والاستخدام ، وظهر ذلك كله فى أوائل ما أنشده من شعر ونثر ٠٠ الخ (١)

رأى الدكتور جودة الركابى :

لقد حقق الدكتور جودة الركابى كتابه « دار الطراز » الذى جمع موشحاته ومختاراته من الموشحات الأندلسية ، وقد تعرض فى الحديث عن ترجمته الى الحديث عن شعره فقال : « كان ابن سناء واقعا تحت تأثير التأنق اللفظى الذى كان يسيطر على الادب فى ذلك الوقت يعجب على الاخص بالشعراء الذين كانوا يهتمون بالصنعة وضروب البيان والبديع ولهذا كان يفضل من بين القدماء أبا تمام والبحترى ويود لو يستطيع مجاراة ابن المعتز الذى يذكر له باعجاب هذين البيتين : ــ

وقفت بالربع أبكى فقد مشبهه
حتى بكت بدموعى اعين الزهر

لو لم تعرها دموع العين تسفحه
لرحمتى لاستعارته من المطر

وكان للقاضى الفاضل أثر عظيم فى توجيهه وتكوين أسلوبه الادبى الخاضع للمدرسة اللفظية ، وكنت ترى فى خلال مدائحه « صلاح الدين الأيوبى » نفسا عربية مخلصة تجيش بالاكبار والاجلال والاعظام نحو الرجل الذى صان الديار الاسلامية ، وطهر بيت المقدس

---

(١) الحياة الادبية : ١٩٦ .

من المغيرين على أرضه ، فيترك الشاعر الصنعة والتكلف عفوا ليترك العاطفة تتحدث وترجع نشوى فى أجواء النصر والمجد (١) .

رأى الدكتور عبد العزيز الأهوانى :

ولقد تعرض الدكتور عبد العزيز الاهوانى فى كتابه «ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار فى شعره » الى دراسة نمـــاذج من قصائده وأخرى من موشحاته وانتهى الى : أن الاصول الفنية والمعنوية التى رجع اليها الشاعر حين كان ينظم قصائده هى التى رجع اليها فى نظم موشحاته الحرص على الجناس اللفظى والمقابلة بين المعانى ،والاعتماد على العقل فى توليد الافكار ، وتمثل التراث الشعرى القديم من ناحية التشبيهات والاستعارات .. أما ما شغف به ابن سناء فى ديوانه من حسن التعليل ، ومن المفارقات ، ومن ايراد ما يشبه القضــــايا المنطقية ، والحجج العقلية ، فقد ظل قائما فى الموشحات ولكنه لم يتوسع فيه توسعه فى الشعر لأن جهده فى تلمس القوافى الكثـيرة صرفه واستنفد بعض نشاطه فى الجهد العقلى ولذلك كان تجديده فى المعانى وابتكاره فيها أوضح فى شعره منه فى موشحاته » (٢)

رأى الأستاذ عمر الدسوقى :

وقد تحدث عنه الأستاذ عمر الدسوقى أثناء عرضه لقصائد الحماسة فى الشعر العربى ، وهو يرى أن شعره كان أضيق حدودا من أن يمثل أمجاد « صلاح الدين » الحربية ، وبطولته التى تكسرت عليها سيوف الصليبيين ، وما كان أحوج هذه البطولة لشاعر من طراز المتنبى أو أبى تمام ليتقابل شاعر اللفظ مع شاعر المجد ،ولكن

---

(١) دار الطراز تحقيق جودة الركابى : (المقدمة) .

(٢) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار : ٢١١ ــ ٢١٣ .

الشعر العربى كان قد تحول عن قوته وروعته القديمة ، فأصبح تكرارا مملا لمعان محفوظة ، ولم يعدهم الشاعر الكبير مثل ابن سناء الملك الا أن يخرج هذه المعانى والصور اخراجا جديدا ، فاذا هو لا يصل الا الى ضروب من التكلف الواضح (١).

رأى الدكتور محمد كامل حسين :

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن فن القاضى الفاضل قد أثر تأثيرا قويا على فن ابن سناء الملك ، وكلاهما أولع بالزينة اللفظية وكلاهما أفرط فى التلاعب اللفظى ، وكلاهما بلغت به المبالغة حد الاستحالة فلذلك قال القدماء ان ابن سناء الملك من مدرسة القاضى الفاضل، فكل خصائص تلك المدرسة تظهر بجلاء فى فن ابن سناء مع ما حدث من افراط فى استخدام تلك الخصائص . ويظهر أن ابن سناء الملك كان مثل القاضى الفاضل تماما ، له ثروة لفظية استطاع بها أن يكثر من التوريات ،فالتورية أصل من أصول فن ابن سناء الملك كما هى أصل من أصول الفن عند القاضى الفاضل فى النثر والشعر » (٢)

هذه بعض الآراء التى قيلت فى دراسة شعر ابن سناء الملك وموشحاته ، وقد اكتفينا بذلك عن غيرها من الآراء الاخرى الكثيرة التى لا تعدو هذه الآراء ولا تزيد عليها . ويهمنى بعد أن قدمت آراء النقاد قديمهم ومحدثهم أن أشير الى نتيجة بحثى فى شعره ودراسته دراسة مفصلة وأوضح معالم المدارس الادبية التى كانت آنذاك ثم مدرسة ابن سناء .

---

(١) الحماسة : ١٠٤ لعمر الدسوقى وآخرين .

(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الايوبيين : ١٢٦ .

معالم المدارس الأدبية :

لقد اجتهد بعض النقاد ودارسو الادب الفاطمى الأيوبى أن يلحقوا كل أديب من هذا العصر بمدرسة من المدارس الأدوبية ، فهذا يلحق بمدرسة العقائد لأن أدبه قد تأثر بالعقائد الفاطمية ، وذاك من مدرسة الرقة والسهولة لأنه أكثر من الغزل الرقيق ،وذاك من مدرسة الكتاب لأنه تأثر باتجاهات الكتاب وطابع الكتابة ونحا منحى القاضى الفاضل ، ودارس آخر ينزع فى تقسيم المدارس ناحية أخرى وهى أن هذا الاديب من مدرسة المجددين وذلك من مدرسة التقليديين ، فهو من المدرسة الاولى اذا نزع بأدبه نزعة تجديدية فى الصور والأخيلة والمعانى ، وهو من المدرسة الثانية اذا سار على نهج الشعراء الاقدمين فى خياله وتفكيره وتصويره .

ما مدرسة ابن سناء اذن ؟

هل نستطيع أن نلحقه بمدرسة العقائديين ؟ لقد تأثر شعره تأثرا واضحا بالعقائد الفاطمية ، وان لم يكن شيعى المذهب، فقد ظهرت فى شعره بعض المصطلحات والعقائد الفاطمية ، واستخدم فيه من غريب الالفاظ ما أدى أحيانا الى شىء من التعقيد فهو حين يمدح « صلاح الدين » يقول :

أعدت الى مصر سياسة يوسف
وجددت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماته
فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
بقيت الى أن تملك الأرض كلهـا
ودمت الى أن يرجع الكفر مسلما

فالمشابهة بين « صلاح الدين » وبين يوسف عليه السلام فى الاسم حقيقة ، ولكن الشاعر قد جعله ابن يعقوب وجعله ابن مريم الذى أحيا الدين بعد مماته ، وهذا لا يقبل الا على أساس واحد ،وهو الجرى على حسب العقيدة الفاطمية التى تؤول الآيات القرآنية التى وردت فى المسيح بأن احياء الموتى معناه نشر الدين واحياء النفوس بالعبادة ، ويقول ابن سناء فى مدح السلطان على بن صلاح الدين : :

مولى الأنام على هكذا نقلت

لنا الرواة حديثا غير مختلق

فقد نقل الشاعر الحديث النبوى الذى ادعاه الشيعة :

« من كنت مولاه فعلى مولاه » الذى قيل فى على بن أبى طالب الى الملك «على بن صلاح الدين» متبعا فى ذلك سنة الشعراء الفاطميين وكما تأثر ابن سناء بهذا المذهب تأثر غيره من الشعراء ، وشاركوه هذا الاتجاه ، كابن النبيه ، وابن الساعاتى وابن مطروح .

وبعد فهل ابن سناء من مدرسة العقائديين ؟ الواقع أن هذه المدرسة قد بدأت فى الانقراض بمجرد قيام الدولة الايوبية حتى لم يعد لها مقومات المدرسة ، وان ألم بعض الشعراء باتجاهاتها وظهر أثرها فى شعرهم ، لأنهم لم يقصدوا الى ذلك قصدا ، ولم يكن يعنيهم أن يلموا بتلك الخصائص ، وانما تنساب اليهم خصائصها وطابعها عبر الزمن كميراث متخلف عن الفاطميين الراحلين ، والذى ينبغى أن نسميه مدرسة هو ما يتجه اليه الشعراء عن عمد ومعرفة بمناهجها وطابعها وخصائصها ، فليس ابن سناء من هذه المدرسة اذن وان ألم ببعض خصائصها .

هل هو من مدرسة الرقة والسهولة ؟

يرى الدكتور « محمد كامل حسين » أن هذه المدرسة تعد في العصر الايوبى امتدادا وتطورا للفن الذى يلائم الحياة المصرية ، والبيئة المصرية ، وأنها كانت تضم أكثر الشعراء في ذلك العصر ، فالألفاظ لينة ، وبحور الشعر مجزوءة ، أو قصيرة ، ولا يظهر في فنهم أى لون من ألوان التكلف ، وقل أن نجد ألوان الزينة اللفظية الا ما جاء للتظرف ، وأكثر شعراء هذه المدرسة من الغزليين حتى أن مذهبهم عرف في العصر الايوبى « بالطريقة الغرامية » فقد اهتم هؤلاء الشعراء اهتماما خاصا بالمقدمات الغزلية فى قصائدهم المختلفة ومن شعراء هذه المدرسة البرهان بن ابراهيم بن الفقيه (٦٤٠هـ) ، القائل : ـ

وا لهف جدي ووا حزنى
ممن الاطفه جهدى ويتعبنى

بذلت روحى فى أدنى تواصله
ذلا وصبرا وعطفا وهو يهجرنى

وكلما رمت منه ما أهز به
عطف السرور انزوى عنى وأحزننى

فالألفاظ سهلة حتى كأن الشاعر يتحدث حديثا عاديا ، وقد ظن بعض النقاد أن الشعراء يستعملون الالفاظ العامية ، وقد دفعهم الى ذلك مالمسوه من سهولة الالفاظ ورقتها ، ومن شعراء هذه المدرسة أيضا « أمين الدين بن أبى الوفاء » المعروف بابن العصار وهو من شعراء الملك الكامل بن العادل وهو القائل : ـ

أعندكم أن قلبى متيم مستهام ؟

الصبر الا عليكم في كل حال حرام
لا أوحش الله منكم فقربكم ما يرام

ومن شعرائها « هبة الله بن عرام » والشاعر النفيس «أبوالعباس أحمد بن أبى القاسم » المتوفى سنة ٦٠٣ هـ ، « والبهاء زهير » . وغير هؤلاء ممن ظهروا فى هذه الفترة .

وبعد : فهل يمكن أن نعد ابن سناءمن أنصار هذهالمدرسة ؟ لقد خص كثيرا من شعره فى الغزل ، بل ان الغزل هو الغرض الثانى فى ديوانه ، وأكثر من ذلك فقد أطال فى مقدماته فى المدائح ، وجعل الغزل يحتل نصف قصيدة المدح ، فحين يمدح القاضى الفاضل : ـ

قتلى لحبكم شهادة وشقاوتى فيكم سعادة
وكذاك كفرى بالغلو ل على محبتكم عباده
ويح العذول اذا مضى من عزله فى أعاده
والنفس تفرق فى معا داة الأحاديث المعاده
تم الغرام بكم فلا نقص عليه ولا زيادة
بأبى وأمى أغيد واذا اعتبرت وجدت غادة
خفر الشمائل لين الأعـ طاف مستعصى المقاده

وهكذا نجد كثيرا من شعره فى المدح قد صدر بهذا الغزل الرقيق ومن أجل ذلك جعله الدكتور محمد زغلول سلام « الشاعر المفتن الرقيق من شعراء هذه المدرسة، وان لم يفصح عن ذلك صراحة(١) .

أما الدكتور « محمد كامل حسين » فقد جعله من مدرسة الشعراء الكتاب فما معالم هذه المدرسة ؟ ولماذا عده من أنصارها ؟

---

(١) الادب فى عصر صلاح الدين الايوبى : ٣٦٥ .

معالم مدرسة الكتاب :

لقد كان شعراء هذه المدرسة يخضعون للاتجاهات الفنية التى يخضع لها الكتاب ، وكان فنهم يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شىء ، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ، ذات الوقع الضخم ، والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع ، مع حلاوة الايقاع ، وكانوا يتلاعبون بهذه الالفاظ تلاعبا تظهر فيه أثر الصناعة ، وأثر التكلف ، وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية ، ومراعاة نظير الى غير ذلك من ألوان البديع والبيان ، ومن أنصار هذه المدرسة « الموفق بن الخلال » وابن أبى الشخباء » والقاضى الجليس ، وابن الزبير ، وعمارة اليمنى ، فى العصر الفاطمى ٠ وفى الايوبى : الأسعد ابن مماتى ، وابن المرصص ، وابن عرام ، وابن ظافر ، على أنهم التقوا مع مدرسة الرقة والسهولة ومعهم ابن سناء الملك ٠

والواقع أن ابن سناء كان تلميذا للقاضى الفاضل كما أسلفنا يسترشد بآرائه ، ويعنى بنقده ، وكان يعنيه أن يستجيد شعره ، والقاضى الفاضل كان كما نعلم زعيم مدرسة الكتاب فى العصر الايوبى ان لم يكن هو منشؤها ولذا نرى أن ابن سناء الملك قد تأثر به تأثرا كبيرا ، وان كانت له شخصيته ، والشعراء الآخرون الذين تأثر بهم وعدهم أساتذة له كابن المعتز ، وقد سبق أن أشرنا الى ذلك ٠

بقى أن نشير الى أن ابن سناء كان يحاول الابتكار والتجديد وان دفعه ذلك الى نزعة عقلية ابتعدت به عن رياض الشعر المونقة (١) ٠

فابن سناء اذن ينزع منزع مدرسة الكتاب ، وان تعلق بآثار

---

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٧٧ ٠

الأقدمين ، فاقتدى بهم فى كثير من صورهم وتفكيرهم ، ولكنه كان على كل حال أحد المعدودين فى العصر الايوبى تطاولت اليه أعناق الشعراء فى عصره ، وحسدوه على مكانته ومنزلته التى ربما كان الفضل فيها يرجع الى أستاذه القاضى الفاضل الذى كان على صلة وثيقة به والله ولى التوفيق ٠

المراجع

ابن الرومى : حياته من شعره	عباس محمود العقاد
ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار	د عبد العزيز الأهوانى
اتعاظ الحنفا	المقريزى
أخبار مصر	ابن ميسر
أدب الحروب الصليبية	د عبد اللطيف حمزه
ارشاد الأديب (معجم الأدباء)	ياقوت الحموى
اغاثة الأمة بكشف الغمة	د فريد الرفاعى
الأدب المصرى من قيام الدولة الأموية الى مجىء الحملة الفرنسية	د عبد اللطيف حمزة
الأدب فى عصر صلاح الدين	د محمد زغلول سلام
الأدب العربى ونصوصه	نعيم الحمصى وخليل هنداوى
الأعلام جـ٢	خير الدين الزركلى

الافادة والاعتبار	**للبغدادى**
البداية والنهاية جـ١٣	**لعماد الدين أبى الفداءاسماعيل ابن كثير**
البيان المغرب	**لابرغرادى**
الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة	**د محمد خلف الله**
الجامع المختصر جـ٩	**لعلى بن أنجب بن الساعى**
الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى	**محمد سيد كيلانى**
الحماسة	**عمر الدسوقى وآخرين**
الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية	**د أحمد أحمد بدوى**
الحياة الأدبية والفكرية بمصر	**د محمد كامل حسين**
الحياة الفكرية فى عصر الحروب الصليبية	**د أحمد أحمد بدوى**
الخريدة جـ١	**عماد الدين الأصفهانى**
الخطط	**للمقريزى**
الدرر الكامنة	**لابن حجـــر (أحمد بن على الكنانى)**
الدولة الخوارزمية	**ابن بسام**
الذخيرة	**ابن بسام**
الروضتين فى أخبار الدولتين	**لأبى شامه (عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى)**

السلوك **للمقريزى**

الشرق الاسلامى قبل الغزو المغولى

حافظ حمدى

الشرق الأوسط فى موكب الحضارة

محمد منصور أحمد

الصناعتين **لأبى هلال العسكرى**

الغاية فى اختصار النهاية **عز الدين بن عبد السلام**

الفرق فى أسماء الفرق **للبغدادى**

الفرق بين الايمان والاسلام **عز الدين بن عبد السلام**

الكامل جـ٤ ، جـ٩ **لابن الأثير**

المجالس المؤيدة جـ١ **لأبى الفداء**

المختصر فى أخبار البشر **لأبى الفداء**

المعز لدين الله الفاطمى **ابراهيم وطه شرف**

المغرب **ابن سعيد المغربى**

الملل والنحل **الشهر ستانى**

المواعظ والاعتبار **أحمد بن على المقريزى**

النجوم الزاهرة **ابن تغرى بردى**

النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق

د محمد جمال الدين سرور

النكت العصرية **لعمارة اليمنى**

الكتاب	المؤلف
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية	ليوسف ابن شداد
بديع القرآن	لابن أبى الاصبع : تحقيق حفنى شرف
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر	لابن خلدون
تأويل دعائم الاسلام	القاضى النعمان
تاريخ الدولة الفاطمية	د حسن ابراهيم حسن
تاريخ التربية الاسلامية	د أحمد شلبى
تاريخ الفلسفة العربية	حنا الفاخورى ـ خليل الجر
تاريخ الشعوب الاسلامية	بروكلمان
تاريخ الاسلام السياسى	د حسن ابراهيم
تاريخ العرب العام	ترجمة : عادل زعيتر
ثمرات الأوراق	ابن حجة الحموى
حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين	د راشد البراوى
حسن المحاضرة	للسيوطى
خطط الشام ودمشق	محمد كرد على
خزانة الأدب	للحموى
دار الطراز	لابن سناء : تحقيق جودة الركابى

دراسات فى علم النفس الأدبى	**حامد عبد القادر**
دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين	**د محمد كامل حسين**
ديوان المتنبى	**مطبعة هندية بالموسكى**
ديوان ابن عنين	**نشر خليل مردم**
ديوان ابن النبيه	
ديوان ابن التعاويذى	
ذيل الروضتين،	**لأبى شامة**
ذيل تاريخ دمشق	**لابن القلنسى**
رحلة ابن جبير	**لابن جبير**
شذرات الذهب	**لابن العماد الحنبلى**
شرح لامية العجم	**للصفدى**
صبح الأعشى	**القلقشندى**
الطبقات الكبرى	**الشعرانى**
ظهر الاسلام	**د أحمد أمين**
علم النفس	**د عبد العزيز القوصى**
فوات الوفيات	**لابن شاكر**
فصوص الفصول (خط)	**لابن سناء الملك**
فى الأدب الحديث	**عمر الدسوقى**
فى الأدب المقارن	**د عبد الرازق حميده**

الكتاب	المؤلف
قوانين الدولة	**لابن مماتى**
قوانين الدواوين	**لابن مماتى**
مرآة الزمان جـ ٨	**لأبى المظفر يوسف بن قزوغلى المعروف بسبط بن الجوزيه**
مصر فى عصر الأيوبيين	**د السيد الباز العرينى**
مصر فى العصور الوسطى	**د حسن ابراهيم حسن**
معجم السلفى	**السلفى**
مفرج الكروب	**لابن واصل**
فصوص الحكم	**تحقيق : أبو العلا عفيفى**
نقد الشعر :	**تحقيق : محمد عيسى منون**
نهاية الرتبة فى طلب الحسبة	**للشيرازى**
وفيات الأعيان	**لابن خلكان : تحقيق محمد محيى الدين**

فهرس

الموضوع	الصفحة

فهرس

الموضوع | الصفحة

